دار الفكر المعاصر
دار الفكر

الرواية الفائزة
بجائزة
دار الفكر
١٩٩٩

حنان أسد

بارقة أمل

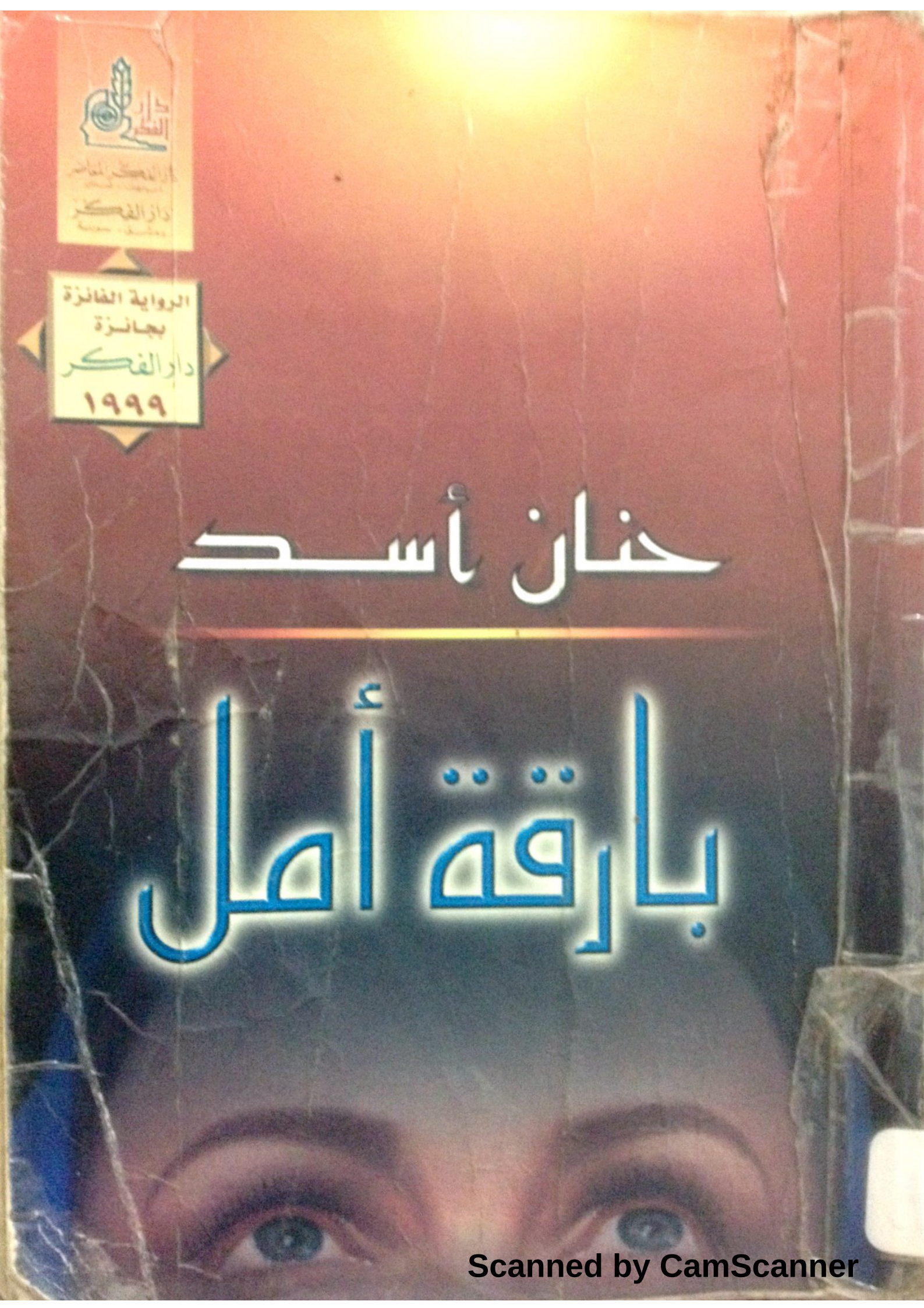

Scanned by CamScanner

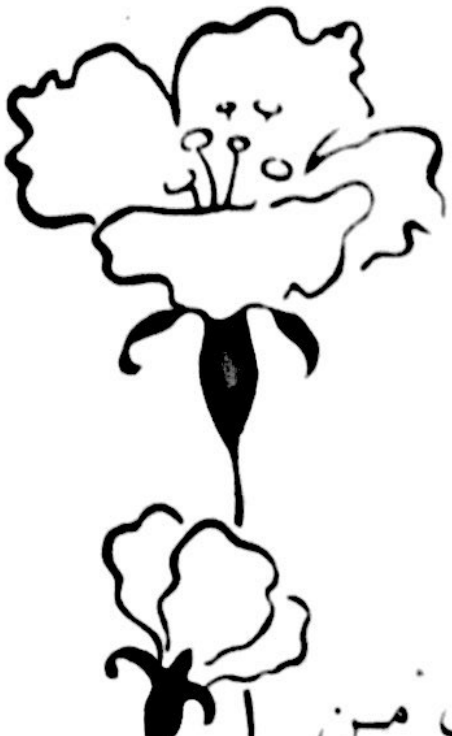

بارقة أمل

لعل الشّباب هم أصدق من يحكي همومه ويترجم أحاسيسه وينضح بمشكلاته.. صحيح أنّهم ينظرون إلى الحياة بمشاعر فيّاضة وخبرة غضّة.. لكنّهم دائماً يتطلّعون بشوق وأمل.. إلى غد أفضل..!!

حنان

-١-

.. رن جرس الهاتف.. كنت أجلو الصحون في غمرة من أعمال التنظيف حين سمعت زغردة بأوتار صوتية هرمة.. هرولت إلى جدتي ورغوة سائل الجلي تتراقص في يديّ.."هل صدرت النتائج..؟ من كان على الهاتف..؟ " تلألأت الدموع في عينيها الصغيرتين وراحت تقول بصوت شجيّ.. "إنها صديقتك علا.. لقد نجحتما..!" بعبث المراهقين ضممت جدتي إلى صدري وبللت ثيابها برغوة الصابون دون أن تشعر هي ولا أقصد أنا، اتصلت سريعاً بصديقتي علا وتأكدت من الخبر ورحت أثرثر معها كالعادة وعقارب الساعة تمر دون أن تأبه بنا.. إنها صديقتي المقرّبة.. أعرفها منذ ثلاث سنوات.. بدأت صداقتنا بشجار على المقعد الأول في الصف.. ثم انتهى بانسحاب إحدى الطالبات المسالمات من المقعد الذي تركته لنا كلتينا.. ثم ازدادت محبتنا يوماً بعد يوم، واستحكمت صداقتنا.. وذاع صيتنا في المدرسة، وصار من حولنا يلقبنا بالثنائي المدهش.. لم يعد يتطرق الآن إلى خيالي

Scanned by CamScanner

موقف من مواقف المدرسة إلا وعلا تسبقه حضوراً في الذاكرة.. كانت جدتي وعلا هما عزائي الوحيد في هذه الدنيا.

- جدتي.. سأنهي التنظيف وأذهب لزيارة علا فنتناول حلوان النجاح..!

- ووالداك!.. ألن تخبريهما بهذا الخبر السعيد؟

خمدت فورة الفرح في عينيّ قليلاً، وقلت...صحيح.. لقد نسيت..!!

- هيا إذن.. اتصلي بأمك وبشّريها، ثم بأبيك وقولي له أن يأتي.. لم أره منذ أسبوع.

تقصدين لم يرني منذ أسبوع ! لقد اعتدت ذلك.. اعتدت أن أرى أبي مرة واحدة كل بضعة أيام، وأن أجتمع بأمي كذلك في الأسبوعين أو الثلاثة مرة.. حتى في لحظات حياتي السعيدة القليلة لا أراهما قربي.. بل أنا من يسعى لذلك، لأنه واجبي نحوهما- هكذا تدخل جدتي في روعي دائماً- ولا يدفعني إلى ذاك غالباً إلا الواجب!

تقول لي اتصلي بأمك.. ثم اتصلي بأبيك.. لماذا (ثمّ)؟ لماذا ليست (و)؟ لماذا ليست (مع)؟؟ لقد حُفرت هذه الثمّ في ذاكرتي ووجداني حتى باتت نقشاً أثرياً كشيء.. من معالمها.. منذ سنين.. سنين تقارب سنوات عمري بل تصغرها بعامين، عامين لم

Scanned by CamScanner

أكن أعي فيهما كأيّ رضيع سوى ثدي أمي وشارب أبي، كنت الطفل الأوّل والمدلّل.. الثياب .. الألعاب.. الحلويات، هكذا كانت تحكي لي جدتي التي تولّت رعايتي بعد أن فُطمت عن حليب أمي ورحت أرضع التشرّد والمشاكل.. البؤس والضياع، كنت كلّما كبرت..

توضحّت معالم الدنيا في ناظري، أرى كل طفل يمسك يد أمه بيد ويد أبيه، اشرئبّ إليهم..يحادث أمّه تارة، ويحادث أباه أخرى.. هناك فرق.. خلل.. شرخ كبير في حياتي لماذا لست مثله؟ وحين كنت أسأل جدتي لماذا.. لماذا.. لماذا؟! كانت تضمّني إلى صدرها الحنون، وتشرح لي بلغة لا يستوعبها عقلي الضئيل: "أبواه متزوجان.. وأبواك..

كانت الشمس في كبد السّماء ترسل أشعتها الوهّاجة.. والعرق يتصبب على الجباه.. وأصوات الطلبة تملأ الخلاء، كلّ يقدّم أوراقه للتسجيل وفي عينيه تبرق آمال عريضة وكأنه اعتلى صهوة جواد أشهب، وراح يخترق به عباب الأمواج، جميلة هي الدنيا في أعين الشباب.. وضّاءة.. ضحّاكة، يمتلكون من القوة ما يثني الحديد بأيديهم، ومن الحب ما يصهره بلهيب أحاسيسهم .. أما أنا فليس عندي من قوتهم إلاّ الشيء اليسير.. ربما لأنني فتاة.. ربما لأن ظروف حياتي جعلتني أتقوقع في أعماقي لشعوري بالنقص.. لست أدري..! يقولون عني إنني هادئة الطبع، وديعة

Scanned by CamScanner

الملامح، حييَّة، قليلة الكلام.. إنها سمات فاضلة تطغى على حياتي؛ واجهت مجتمع المدرسة بأبوين كأبويّ.. وما كان ذلك بالأمر الهيّن.. كنت أتلقّى حيناً نظرات رثاء تكاد تهوي بي إلى الحضيض، وأعود فألوك مرارتي وأرسم ابتسامتي الهادئة رسماً يعجز عنه الفنانون، ولئن كنت أتجاهل الأمر وأتصنع الهدوء فإن الجراح تفتك في أعماقي.

وهذه اليوم مرحلة جديدة من مراحل حياتي.. فيها انطلاقة إلى الحياة، وتغلغل بالحيوية، وصعود دائم نحو الأفضل.. فيها أنني بعد أربع سنوات من الجامعة سأصبح مدرّسة للّغة العربية، سأستقلّ بنفسي وأشعر بوجودي، وسأنفق على نفسي.. وقد أتابع إلى جانب ذلك الدراسات العليا.. ولعل هذا يلملم جراح الماضي ويعوّض ذاك النقص.. أحلام كثيرة تراودني كانت بدايتها أوراق التسجيل في الجامعة ونهايتها الحصول على شهادة التخرّج..! ومما يزيد سعادتي أن علا سترافقني في هذه المرحلة أيضاً وبالقسم نفسه، وهذا ما رفع كثيراً من معنوياتي وجعلني أغبط نفسي أن حالفها الحظ لأول مرة بأمنية تحققت.

انتهينا أخيراً من فوضى الطوابع والأوراق وصخب الحشد والجموع، افترقت وعلا في الطريق فقد كان عليّ أن أمرّ على أمي.. أقصد زيارتها.. أحياناً أشتاق إليها.. وأحياناً كثيرة أشعر أنني بحاجة لها، وأن حكمة جدتي لا تتسع لطيش أحلامي.. وربما

Scanned by CamScanner

راودتني رغبة في العيش معها لكن شعوري بالغربة بين زوجها وولديها أخذ يطحنني ويردني بقسوة إلى دثار جدتي.

قرعت الجرس ففتحت لي أختي صبا.. رحبت بي وسارعت لتناولني كوباً من الماء البارد أطفئ به سعير ظمئي.. كيف حالك صبا..؟ وكيف استعدادك للمدرسة؟

- جيد..! لكن الدراسة مملّة.. مشاهدة القنوات الفضائية أكثر متعة..!

دخلت أمي بكلمات الترحيب وقبلات الشوق، أعلمتها أنني كنت في الجامعة أقوم بإجراءات التسجيل... آه.. كبرت يا بنتي.. وها أنت ذي في الجامعة.. كم أنا فخورة بك، وا لله إن فرحتي بك لا تقدّر بثمن يا أمل، ادرسي جيداً واجتازي كل مراتب العلم، حققي ذاتك يا بنتي.. علّ ذلك يعوضك عما قصّرنا في حقك أنا وأبوك، وانتبهي جيداً هناك.. أجواء الجامعة ليست صافية دائماً، وأنا أعهدك فتاة ملتزمة واعية.. أخشى عليك عبث الشباب.

قلت بسذاجة: لا تخافي عليّ يا أمي.. فأنا يقظة واعية..!

- كيف حال جدتك؟

- بخير والحمد ا لله ، كعادتها لا تفارق السبحة يدها، كلّما تسمع نبأً مفرحاً عني تقوم فتصلّي شكراً لله.

- ألا ترين إخوتك وأباك؟.. ما أخبارهم؟

Scanned by CamScanner

- كنت عندهم مع جدتي منذ يومين، محمد يستريح من التعب بعد امتحانات الشهادة الإعدادية، ورغد ورهف في المدرسة الابتدائية تمضيان أيامهما في زيارات أمهما التي لا تنتهي. تارة عند جارتها.. وأخرى عند أختها.. وثالثة عند أمها.. وهكذا.. ولكن.. أين لؤي؟

.. ما لي لا أراه؟

أجابت صبا بميوعة.. إنه في النادي مع أصدقائه، لقد طلبت من ماما أن تسجّلني في النادي لأمارس رياضة التنس لكنها رفضت.. أمل.. أقنعيها..!

.. كيف أقنعها بما لست مقتنعة به.. أحياناً أشعر أن أمي وزوجها يفرطان في تدليل صبا ولؤي.. وأحياناً أغبط أخويّ هذين، فأشعر أن حياتي هي الفقيرة وليست حياتهما هي الثريّة.. ليس هو الفقر المادي بقدر ما هو الفقر المعنوي، حاجتي إلى العطف والحنان اللّذين يغترفان، إنني لأبخس من حق جدتي الشيء الكثير إن قلت إنها تحوجني إلى ذلك.. قد لا يكون الأمر بكمية عصير أرتشفه في أيّ وعاء، بقدّر ما هو في كينونة الوعاء ذاته إن كان كوباً أو كان جرّة أو كان دلو بئر..!

خرجت من منزل أمي بعد أن أصرّت على تناولي الغداء معها فزوجها كان مسافراً في مهمة عمل. فهو وكيل لشركة تنتج

Scanned by CamScanner

الأدوات الكهربائية.. تدرّ عليه دخلاً وافراً، هو ابن خالتها ويحبها منذ زمن .. لكن الأقدار فرّقت بينهما وشاءت لها أن تتزوج أبي وتعيش معه في جحيم- كما كانت تقول- لانعدام المحبة والتفاهم بينهما، وسافر هو للعمل وحينما عاد وجدها أسيرة لقب مطلّقة تصارعه ويصارعها لعامين كنت خلالهما في رعايتها عند خالي عثمان، رثى ابن خالتها لحالها وهي التي كانت مدار حديث العائلة برقّتها وجمالها.. وتأجج فيه حبه الأوّل.. وواجه كل اعتراضات أهله على زواجه من مطلّقة وهو الأعزب ذو المؤهّلات، كان شرطه الوحيد ألاّ أنشأ بينهما.. وكان خياراً صعباً وقعت بسببه تحت ضغط أخيها وزوجته واقتنعت بأنها فرصة لا تعوّض، وأن قطار الزمن قد يفوتها، وقد يحيق الندم بها ودخل في روعها أن أبي مسؤول عني كمسؤوليتها وسمعت كثيراً من الكلمات المريرة التي لم تكن بمثل مرارة أن أعيش في كنف زوجة أب، خصوصاً وأنا ما زلت ابنة أعوام أربعة، ثمّ ألهمها الله أن تعهد برعايتي لجدتي وعمتي هدى التي لم تكن قد تزوجت بعد.. ثم كان ما كان..

كنت من قبل ألوم والدتي.. فما كان عليها أن تتنازل عني مهما كلّف الأمر.. أنا فلذّة كبدها.. لكنني عندما كنت أراها سعيدة بأسرتها الصغيرة كنت أرتاح أن لم أكن في يوم ما سبباً يحرمها هذه السعادة.. وعليّ أن أقبل بالحقيقة التي أنا فيها كما

Scanned by CamScanner

يقبل الأعرج عكازه، وضعيف النظر نظارته.. هذا هو قدري الذي لا مناص لي منه..!

وصلت إلى المنزل لأرى جدتي تقول في همس وارتباك: ما الذي أخّرك..؛ هناك خطّابات يردن رؤيتك.

- جدتي.. أنسيت دراستي..؟ أم أنك تريدين الخلاص مني؟

وضعت يديها على ذراعيّ، وبحنان عارم قالت: معاذ الله.. لكنني أريد أن أفرح بك، أريد أن أراك في فستان الزفاف قبل موتي..! ودمعت عيناها.

- أطال الله في عمرك..! لكنني خططت لمستقبلي وما زال الوقت باكراً لأمر كهذا.. على كل.. سأدخل عليهن كيلا أحرجك.. أرضيت..؟

Scanned by CamScanner

-٢-

توالت ساعات الليل ولا رغبة لي في النوم.. فنجان القهوة إلى جانبي وأنا أترنّح على الكرسيّ الهزّاز في الشرفة، راحت عيناي تتأملان السماء في تفكّر وعجب.. سبحان الله.. سبحان من أبدع هذه القطعة المتناثرة من السماء.. سواد عقيم.. تغشاه كواكب دريّة.. النجوم بعيدة، والقمر يطلّ مزهوّاً ببريقه الفضيّ وكأنه يتباهى ويتبختر ومن حوله النجوم معجبات كثيرات.. لكنهن جميعاً بعيدات عنه وكأن نوره يذهب بلبّ القريبات فيصرن إلى العدم.. ويظلّ هو مستأثراً بمحطّ أنظار البشر.. أهي أنانية منك أيها القمر..؟ أم هو غرور الجمال..؟ تغنّى بك الشعراء وهام بك العاشقون.. رأوا في صفحتك الفضيّة صورة الحبيب، ودمعة المتيّم، ولهفة العطشان.. هم يعلمون أنك حجارة صمّاء.. وكوكبٌ أجرد.. مع أنّ نورك يغشي العينين عن كل حقيقة أخرى، وكأنّ المرء فينا يتلذذ أحياناً باحتجاب الحقيقة عن مرآه ويرى في ذلك راحة كبرى.

استيقظت على تغريد عصفورَيْ الحب في قفصهما الذهبيّ المعلّق على حائط الشرفة، كانت الشمس تبتسم لي بخفر العذارى وتسلّم على العصفورين بأشعة تعكس لونهما الأخضر والأصفر

Scanned by CamScanner

في تناغم بهيّ، شعرت بأوصالي مهدودة من النوم على الكرسيّ، ما زالت الساعة السابعة إلا أنّ شوقي للذهاب إلى الجامعة في يومها الأوّل جعلني في نشاط وحيويّة، أعددت طعام الإفطار لي ولجدتي التي ظلّت كعادتها صاحية منذ صلاة الفجر.. توجّه إبرة المذياع إلى كل إذاعة تحظى منها بشيءٍ من مواعظ وعبر دينية وآيات قرآنية تصغي إليها بكل اهتمام، مصادقتها للمذياع وشرائط التسجيل الدينية قد حشت ذاكرتها بما لا يعرفه كثير من المثقفين، ولطالما ألجمت لساني بفصاحة كلامها.. مع أميّتها البكماء.

وما إن رتبت المنزل ثمّ تهيأت للذهاب حتى وافتني علا، ودخلت وهي تقول:

- ألم تنتهي بعد..؟ قلب في الثلاّجة..!

التفت إليها وقلت بابتسام.. ما الذي جاء بك..؟ أجابت فوراً بطرافة.. قدماي..!

- دعينا نشرب كأساً من الشاي قبل ذهابنا، ما زال الوقت باكراً، وفي كل الأحوال ليس هناك محاضرات قبل أسبوعين على الأقل.. مجرّد اطلاع على الكليّة وشعور بالألفة مع جدرانها..!

- دعينا من فلسفتك وأعدّي الشاي إذن في الحال..

Scanned by CamScanner

ودخلت جدتي بثوبها الفضفاض الطويل وشالها الأبيض المسدل على أكتافها بكل وقار.. كانت البشاشة تملأ وجهها المنير، تناولت السبحة من يدها وأعطيتها لعلا.. خذي.. سبّحي عن جدتي قليلاً ريثما أعدّ الشاي، أريد أن أرتاح من المذياع الذي في داخلك!

كانت الجامعة في هرج ومرج، وعند الكلية انتابتني قشعريرة أمام هذا الصرح الجميل القديم.. ومن ثمّ أحسست بنشوة عارمة، فالجوّ يوحي بالفضول، وراودني الخوف أيضاً.. كيف سأستطيع بسذاجتي أن أجتاز شرخ حياتي، إن اخترت عباب هؤلاء الطلبة وكوّنت صداقات جديدة، وأن أحمي نفسي من التّرهات؟؟

- علا.. ما شعورك وأنت تطئين أرض الكلية تحت هوية طالبة جامعية في كلية الآداب قسم اللغة العربية..؟

- أمل.. ما رأيك أن نبحث عمّن يبيعنا عصيراً مثلّجاً..؟!.. بالله عليك.. ألا يتوقف إحساسك عن التدفّق ولو للحظة..؟!

رغم تهكّمها واستهزائها الدائمين بكلماتي وتعابيري إلا أنني أحبها، وأدرك جيداً أنها تبادلني المحبة وبصدق، أشعر كأن كلماتها أوراق شجر خريفية تتناثر على صفحة ماء زجاجية.. فتزيدها جمالاً على جمال.. وقفت أمام البائع لتشتري العصير.. حشمتها أنيقة.. بشرتها خليط من سمرة الريف ورفاه المدينة..

Scanned by CamScanner

عيناها الواسعتان تبرقان بألف شعاع.. وفي وجنتيها يتقد الدم لا يعرف السكون..كتلة من التوهّج والمرح. ظروفها ليست خيراً من ظروفي .. فقدت أبويها، قُتلا في ظروف غامضة عصيبة، حققوا في الجريمة التي طوي ملفها سريعاً.. بعد ما سجلت باسم مجهول. كانت ثالثة ثلاث أخوات، وهي أصغرهن. رعى عمها في القرية أختيها، ثم زوجهما من ولديه.. ورقد رقدته الأخيرة قرير العين. أما علا التي كانت في أشهرها الأولى فقد نشأت في المدينة عند خالتها، أرضعتها مع ابنها وهو يقاربها في العمر.. وهكذا ترعرعت علا مع إخوتها الصبية الخمسة وهي البنت الصغرى الوحيدة، تفانت خالتها في العناية بها، وحاولت ألا تميّز بينها وبين أولادها، ولعلّ ما ساعدها في ذلك حاجتها الداخلية إلى أنثى بعد خمسة ذكور. ومع الأيام طوى الزمان الجروح، وغدت حياة علا كحياة كل الفتيات في كنف أسرهنّ لولا أن لقب أسرتها يختلف .

- أمل.. ما رأيك أن تأتي معي إلى المنزل لنأكل؟ أشعر بالجوع الشديد.

- ماذا؟ أمنذ البداية..؟ دوام الجامعة طويل وهذا أمر لا ينتهي.. يجب أن تروّضي نفسك على الجوع.

- يجب أن تعرفي أنني فتاة بريّة لا أروّض.. هيا بنا إلى المنزل وإن شئت لا تأكلي أنت فلك ذلك، ستوفرين عليّ تنظيف صحنك على الأقل..!

Scanned by CamScanner

فتحت علا الباب بالمفتاح، حيث لا أحد في المنزل غير أمهـا، أخواها الكبيران متزوجان والبقية في العمل أو في الجامعة، دخلنا على رؤوس الأصابع لنفاجئ أمها.. ففاجأني شاب، فغرت فمي ورجعت القهقرى، التفتت علا ونادت: غيث.. أنت هنا..؟

احمّر وجهه وقال مرتبكاً: عدت من الجامعة.. واستأنف يقول: ولكن لِمَ تمشيان كاللصوص؟؟

شعرت بخجل شديد وتمنيت لو أنني لم آتِ مع علا إلى هذه الوليمة الساخنة دخلنا الغرفة وجلست على الأريكة ألتقط أنفاسي بعد أن بقينا وحدنا ..سارعت علا ووضعت يدها على وجنتيّ.

- ويحي.. أربعون هنا.. وأربعون هناك.. موجة حر شديدة قد تودي بي إلى الهلاك!

- كفاك هراءً.. أحضري الطعام بسرعة لا أريد أن أتأخر.

خفق قلبي وشعرت بالإحراج.. إنها المرة الأولى التي ألتقي فيها بأخيها غيث.. طالب في السنة الرابعة في كلية الحقوق لم أتوقّع اللقاء بهذه الصورة المباغتة! لمحت علا بنظرات ماكرة إلا أنني أوصيتها أن تترك الأمور على عفويتها وتتركني أتقبّل الواقع كما جاء بي من أحداث، وبرغم عواطفي الجيّاشة كما تقول علا إلا أنني أستأثر بها ولا أفكر ببعثرتها هنا وهناك، التزامي وحشمتي يردعاني عن كلّ تصرّف طائش .

Scanned by CamScanner

-٣-

.. نسائم الخريف باردة توشّح الأوصال.. تقلّب صفحات كتابي وكأنها تداعبني.. تعبث بشعري.. بأفنان الشجر في حيّنا الهادئ.. تخفف من أثقالها.. وتغني الشارع بلون باهت من الأوراق المتناثرة، طيور السنونو تودع سماءنا.. تبحث عن شمس ودفء.. ترحل عن أجواء توحي بالكآبة، فالشمس محجوبة وراء الغيوم والسماء تحتبس المطر.. لا الشمس تغزل أشعتها ولا الغيم يحكي أسراره، صمت الخريف يخفي وراءه حزن السماء.. ولوعة الأغصان.. ولهفة الأرض العطشى.

قمت متثاقلة من مجلسي أمشي بخطىً وئيدة نحو جدتي الراقدة في سريرها.. أصيبت بنزلة برد طرحت جسدها على الفراش. رحت أتأمل تجاعيد وجهها وهي تحكي خارطة عمر بحاله.. توصل طفولة العهد بربيع العمر بخريفه ثم شتائه.. أرى فصول العام الأربعة حول عينيها.. عينيها اللتين تقعّرتا في محجرهما لكنهّما تشعّان دائماً ببريق الحب والعطف على كل البشر. وبريق حزن من هموم أيام أكل الدهر على جبينها وشرب، شفتاها لا تبرحان تذكران الله تعالى وكأنّ اللؤلؤ المرصّع يخرج من بينهما.. نور إيمان يطفح على هذه التقاطيع الناعمة، ويبعث همّة في

Scanned by CamScanner

جسدها الضئيل، ولكن مابه اليوم يشكو وجع السنين، وكأنّ زيت السّراج أوشك على النفاد. سبحان الله في خلق هذا الإنسان.. مهما عُمّر فإنه يُنكّس في الخلق، ويخرج من رحم أمه كتلة لحمية لزجة طرية، لا يعرف إلا الصّراخ، ثم يكبر ويكبر.. وتدبّ الحيوية في أوصاله.. يحبو.. يمشي.. ثم يركض.. ويقفز ويهرول.. يقال عنه: إنه طفل شقوة، ويكبر هذا الطفل.. يعرض منكباه ويجهر صوته، وتتحجّر قبضته.. يصل أوج جبروته، ثم ينكّس ويتراجع عن القمة حتى يتحول من بعد القوّة إلى ضعف.. ذلك ليعلم الإنسان أن مردّه إلى من فطره.. فتبارك الخلاّق!

مرّ يومان وثلاثة وما زالت الوعكة الصحيّة ملمّة بجدتي بل وتزداد يوماً إثر يوم.. أبي وعمتاي يزورونها كلّ يوم، اقترحوا بعد ذلك إشراف طبيب عليها.

حين خرج الطبيب من غرفتها أحسست انقباضاً في صدري لم أهتدِ في تفسيره إلاّ إلى شعور غريب أنها في أيامها الأخيرة، وهكذا أوحت إلي نظرات أبي وعمّتي، تكفّلت أمر العناية بها وانقطعت عن دوامي في الجامعة لمدة أسبوع لازمتها خلالها الفراش، وكأنني أعبّ من كل لحظة معها وأوهم نفسي أنني أريد الشبع منها..!

في هدأة الليل البهيم.. كانت تغط في سباتها، والنوم قد جفاني، فرحت أمسح بيد حانية على شعرها المحنّى ولساني يرتّل

Scanned by CamScanner

آيات قرآنية تماماً كما كانت تفعل لي عند مرضي، لم يفارق الدمع عيني، راح قلبي يتلوّع بأسى وينادي بحرقة.. جدتي.. أطال الله في عمرك.. من لي بعدك؟.. يا من كلأتني بعد أن هجرني الجميع، وآويتني بعد أن ضيعني الجميع ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ [الضحى ٩٣/٦-٧] جدتي.. يا تحفة قلبي الأثرية التي تزداد قداسة مع الأيام، يا شمعة أيامي ونبراس حياتي، يا مرجعي في أحلك أوقاتي وملاذي في زحمة أشجاني، يا آية المولى في روح الخلق، يا صفوة الطهارة ومنبع الإيمان، يا فطرة العبودية وحكمة الأيام..

جدتي.. من سيؤويني من بعدك..؟ أيّ حضن سأرتع فيه؟ بل أيّ حضن سألج فيه..؟ أيّ ظلّ سيسمو بي؟ من سيصلّي صلوات الشكر في نجاحاتي..؟ ومن سيسهر على خدمتي عند امتحاناتي..؟ أيّ أرواح تلك التي ستشاركني من بعدك أيامي..؟ وأيّ لون ستنضح به من بعدك كآبة أحزاني..؟ هل سأعيش لدى زوجة أبي؟ أم أعيش عند زوج أمي؟.. جدتي.. لا تتركيني بالله عليك.. يا ليتني سمعت كلامك وحققت أمنيتك.. يا ليتك أمّنت عليّ بقيّة حياتي، لم أحسب ليوم كهذا.. حسبت أن الزمن الذي ضنّ علي بحضن أبويّ لن يضنّ عليّ بك، نسيت أن هناك قاهراً في كل زمان ومكان يسمّى الموت، نسيت.. بل تناسيت أنه سيأتي يوماً ويخطفك مني، ويترك لي شبح الوحدة ينام على

Scanned by CamScanner

سريرك، ويرتشف قهوة صباحك الحلوة المذاق.. يترك لي صدى صوتك ترتلّين وتسبّحين مع تغريد وزقزقة عصفورَيْ الحب، تلطّف أيها الموت بي.. حدثنا معاً أو دعنا معاً، وجدت نفسي أحتضنها بعمق، وكأني أريد صهر روحينا لتغدوا روحاً واحدة أهبها رمق الحياة إن أطال الله في عمري.. أو تهبني سكرة الموت إن انتهى أجلها.

استيقظت جدتي على صوت نحيبي وتضرّعي وقد بلّلت عبراتي صدرها الهزيل، تغلغلت يدها المتعبة في شعري، قبّلت رأسي ويدي، كنت ألهث بألم وخفقات قلبي المضطربة تتناغم بحرقة مع خفقات قلبها المنهكة، قالت بصوت غضّ يقطع سكون الليل وفحيح الصمت، ويوحي برهبة ورفق في آن معاً: أمل.. لقد شاء الله لي أن أعيش هذه الدقائق لأوصيك بها فاسمعيني.. لابد أنك ستمرّين بمرحلة شديدة الوطأة من بعدي، وإنه، والله، ليعزّ عليّ فراقك وتركك في غياهب الوحشة، وإن كان أحد يغريني بحياة أطول فهو أنت، غير أن عزائي في لقائي للمولى، عزّ وجلّ، واسترحامه بك في ملكوته وبجوار عرشه يغفر لي بعادي عنك.

أمل.. ليس الموت بتلك الرهبة وذاك الجدار الكتيم بين الأموات والأحياء، إن هو إلا حاجز رقيق عازل يفصل بين الروح واللاروح، كثيرون هم أموات قبل أن يخترقوا الحاجز ذاك، وما أكثر من وصل إلى الروح الخالدة فتصعّدت روحه إلى بارئها،

Scanned by CamScanner

وعاش بقربه يراه، ويستحوذ قلبه وكل كيانه وإن كان جسده يخالط الأجساد.

أمل.. أوصيك بتقوى الله تعالى وحسبي بها من وصية.. هي زادك في الحياة الدنيا، ليكن ذكر الله دواءك عند السقم، ليكن بكاؤك لله، تضرّعك إلى الله، شكواك منه وإليه، اطلبي منه تعالى الرحمة.. اطلبي منه المغفرة.. اطلبي منه التوفيق والسداد.. اطلبي منه الحفظ والحماية من الزلل.

أمل.. روحك شابة، ونفسك فتيّة روّضيها على تقوى الله، صوّميها عن الشهوات، عوّديها رقابة الله.. فمن لم يخف رقابة الله تعالى لم تُهبه إلا رقابة الناس وفسد كل عمله بالرياء.

أمل.. ليكن أملك بالله كبيراً ولا يتأسي من روحه وتذكري دائماً قوله تعالى: ﴿وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص ٢٨/٦٠]، عديني يا أمل.. عديني بتنفيذ الوصيّة. أجهشتُ في البكاء.. جدتي..!! كررت طلبها بجدية أكبر وبصوت بدأ يتعب.. عديني يا أمل..!

- أعدك يا جدتي.. أعدك.. لكن .. لا أستطيع أن أتصوّر حياتي بعيداً عنك.. أين سأعيش؟ مع من؟

- بجسدك مع أبيك وإخوتك، وبروحك الطاهرة مع الله تعالى وسأزورك في الأحلام، اطلبي لي الرحمة.. فلديّ امتحان عسير..

Scanned by CamScanner

والآن تعالي ونامي بجواري، دعيني أرتاح من عبث الدنيا وصخب الحياة..!

تغلغلت بين ضلوعها ودثّرتني بالغطاء ونمنا.. كانت ليلة هادئة ساكنة سكون الموت الذي زارنا، كانت آخر ليلة أنامها في حضنها، صحوت لأجد نفسي ممسكة بجسد قد فارق الحياة وبات جثّة هامدة بلا حراك..!

Scanned by CamScanner

-٤-

..الأيام تنزاح ببطء كئيب، لا تعرف الشمس فيها إلا الشروق والغروب، ولا يعرف البشر فيها إلاّ الأكل والنوم، ولا تعرف الجامعة فيها إلا الزحام والاكتظاظ، خرجنا من قاعة المحاضرات ولدينا حتى المحاضرة التالية ساعة من الفراغ، أخرجت من حقيبتها فطيرتي جبنة ناولتني إحداها وسألتني.. كيف تحدين نفسك الآن؟ ألست أفضل من ذي قبل..؟

تنهّدت وقلت.. أفضل أو أسوأ.. لم يعد يهمني شيء في هذه الحياة، أمرّ بالمقبرة فأغبط ساكنيها.

قالت متضايقة.. أمل.. لا تتكلّمي هكذا، ما زالت الحياة تفتح أبوابها أمامك، ووفاة جدتك محطة من محطات.

- محطات مليئة بالتشرّد والضياع!

- أي ضياع تتحدثين عنه وأنت في بيت أبيك؟

- فعلاً.. أيّ ضياع.. لو تعلمين.. حين كنت أرتّب أشيائي في الغرفة كانت الدموع على وجهي وكأنها صنبور مياه صامت، سمع أبي التنهيد يحرق أنفاسي فدخل الغرفة وربّت على كتفي قائلاً بندم وحزم.. يبدو أنه ذنبي أنا.. هذا ما كان يجب أن يحدث

Scanned by CamScanner

منذ زمن.. أنا أبوك يا أمل.. وهذا بيت أبيك..! ارتميت على صدره وأطلقت العنان لنحيبي الذي كتم طويلاً، ضمّني بدفء وحنان أكاد أشعر بهما لأوّل مرة، أبي رجل طيّب جداً يا علا، صحيح أنه كان يشغل عني بعمله وأسرته، لكنه يحبني من أعماق قلبه، وكما يقول لي دائماً: أنت أوّل من منحني لقب أب، لكن الغربة داخلي أنا.. أنا من أشعر نفسي ثقيلة على أسرته.. أحياناً أجد تمايزاً بين حياتي وحياتهم في أتفه الأشياء فأشعر بالحرج والضيق، وأخشى أن أكون غير مرغوبة بينهم، رغم أن إخوتي لم يحاولوا مرة مضايقتي، بل إن رغد ورهف تركتا لي سريراً ونامتا معاً في سرير واحد عن طيب خاطر، تشعران بالسعادة حينما أتولّى عنهما أعمال المنزل، وحين أساعدهما في دراستهما، ومحمدّ فتى صامت وهادئ هدوء البحيرة.. أحاول أن أجيب عن تساؤلاته في مادة اللغة العربية وفي المواد الأدبية عموماً.. لكن.. كل.. كل هذا لم يغيّر من داخلي شيئاً.. مازلت أشعر بالفقر.. بالعوز.. بالفراغ.. وكأن النقص في أعماقي قد ازداد تعاظماً..!

- ما رأيك أن نلطّف الجلسة؟ على ذكر سيرة الفقر.. انظري بطرف عينك إلى تلك الشلّة من الطلبة والطالبات. انظري إلى ذي القميص الأزرق الذي يسلب لبّ من حوله بحديثه، هل تعلمين أنه من أترف طلبة الكلية وأكثرهم ثراء؟؟

- وكيف عرفت؟

Scanned by CamScanner

- إنه حديث فتيات الكلية، له ثلاث سنوات في الكلية ومازال في السنة الأولى، يأتي إلى الجامعة لعرض أزيائه في كل أسبوع أو أسبوعين مرة.. بسيارة جديدة، وساعة جديدة، وثياب جديدة..! أتصدقين أن الساعات التي يلبسها لا مثيل لها في بلادنا... حتى أن حذاءه يبلغ سعره ألف ليرة.. نظارته الشمسية بعشرة آلاف..!!

قلت مستهزئة.. وهل علّق على ظهره قائمة بأسعار مشترياته؟

- لا تهزئي بي.. هذه الأرقام من مصدر موثوق.

- وماذا يعنيني كل هذا؟ .. أتريدين أن أخطبك له..؟

- آه يا أمل.. ليتك تفعلين..! سأدعو لك ليل نهار..!

- لكنني أخشى أن يدعو هو عليّ ليل نهار..!!

.. قطع مهاتراتنا صوت لطيف، التفتنا لنجد غيثاً يحيينا.. إنه شاب وسيم حقاً.. طويل القامة مهاب الطلّة، شعره خرنوبيّ وعيناه علسيّتان، شفتاه تفترّان عن ابتسامة خجولة ساحرة ومن فوق الشفتين شارب رجوليّ جميل، وتلك الكتب التي يمسكها بيمينه والمعطف البنيّ الذي يرتديه يهبانه جاذبية مفعمة بالنشوة، سلّمت عليه بحياء ورحبت به علا وسألته بخبث وحنكة ظاهرين.. أراك عندنا..!

تلعثم قليلاً ثم أصلح وضعية نظارته وقال: أنهيت محاضراتي وقلت أمرّ عليكما وأرى إن كنتما تريدان أيّة خدمة.

Scanned by CamScanner

قالت علا بشراهة: بالنسبة لي فأنا جائعة وبحاجة إلى طاولة عليها شتى الأصناف من الأطعمة.

تبسّمت وقلت له بصوت خافت: لا تصدّقها.. لقد أنهينا الآن غداءنا.

ضربتني بمرفقها وقالت بغيظ.. دعيني أكسب منه مرّة..!

ضحك من أعماقه ثم نظر إليّ وقال: على فكرة أمل.. أجدد تعازيّ الحارة إليك، أرجو أن تكون أوضاعك مريحة.

قلت ببساطة: الحمد لله على كل حال.

- ونِعم با لله!.. أستأذنكم.. أمل.. إن احتجت أيّة مساعدة أنا بالخدمة.. السلام عليكم.

وبعد أن ذهب راحت علا تردد صوته بتهكّم.. أمل إن احتجت أية مساعدة أنا بالخدمة، وأخته علا التي عرّفته على حضرتكم أصبحت في سلّة المهملات..!

- معاذ ا لله.. أنت الأصل!.. أنت المصدر وأنا المشتق!

- أمل.. لنتكلم بصدق.. ما رأيك بغيث؟ واضح أنه معجب بك، إنه لا يكفّ عن السؤال عنك في المنزل. صمت هنيهة ثم قلت: أكذب إن قلت إنني لست معجبة به، خصوصاً إن كنت تقصدين بالإعجاب ذاك الإحساس الذي ينتابك لدى رؤية شكل

Scanned by CamScanner

وسيم أو ملامسة خلق رفيع لكنني أكذب إن قلت : إن قلبي خفق له، لذا وكما قلت لك سابقاً.. دعي الوقائع تجري كما هي ولا تستبقي الأحداث، أنا بانتظار حب يفرض نفسه عليّ لا أفرض نفسي عليه.. ثمّ.. ما أدراك.. قد يأتي يوم وأهيم به حباً..!

وصلت إلى مجلسنا ثلاث زميلات لطيفات راحت إحداهنَّ (فاطمة) تقترب نحونا بلهفة وتسأل.. من ذاك الشاب الذي كان معكما..؟

قالت علا بفخر ومرح.. إحم.. إنه أخي غيث.

قالت بسذاجة: يا الله.. كم هو جميل..! طمئنيني هل هو خاطب.. متزوّج..؟ ما وضعه الماديّ..؟ مركزه الاجتماعيّ؟

ضحكت علا وقالت: ولِمَ لا تتعرفين عليه بنفسك، إنه جارنا في كلية الحقوق؟

رفعت فاطمة رأسها بعنفوان وقالت: لكنني لا أشتري سمكاً في الماء.

أجابت علا: هذا شأنك.

فقالت بتواضع: في كل الأحوال إذا أردت أيتها الأخت الكريمة أن تخطبي له فعنواني لا يُضيّع.. جمعية المهندسين- الشارع الثاني- البناء رقم (١٣)..!!

Scanned by CamScanner

لم نتمالك أنفسنا من الضحك إلى أن قلت لهن.. لقد لفتنّ الأنظار بأصواتكنّ.. أسرعن.. الطلبة يدخلون القاعة، حان وقت المحاضرة..!

.. بعد أيام قليلة اتصلت علا بي مساء وأعلمتني أنها ستتغيب عن الجامعة عدة أيام، فهي مضطرة للسفر إلى قريتها للقيام بإجراءات حصر إرث والديها في البيت والدكان لها ولأختيها المتزوجتين، وسيسافر غيث معها لإعانتهن في تعجيل الإجراءات كونه يدرس الحقوق.

شعرت خلال سفرها بفراغ كبير خصوصاً أنني لم أنهض من كبوة فقدان جدتي بعد، ما زال شعور الغربة يحاصرني في المنزل، زوجة أبي رغم صمتها وكتمان ضيقها إلا أنها لا تجد ضيراً في التأفف والتذمر مني في غياب والدي، وأنا أحاول أمامها تجاهل الأمر كأني لا أعي شيئاً.. لا أدري هل أنا أصبحت مرهفة الإحساس، جريحة الفؤاد، أم أنها حقاً متضايقة من وجودي، أم كلاهما معاً..؟؟

.. كان يوم عطلة حين شعرت بضيق قد يبلغ الاختناق، ساقتني خطاي إلى منزل جدتي في حنين وشوق، دخلت والدموع تملأ وجهي.. صمت رهيب.. تجوّلت في المنزل غرفة غرفة وأنا أرى طيفها أنّى حططت طرفي.. وهي تطبخ ورائحة الطعام تملأ

Scanned by CamScanner

الخيشوم.. وهي جالسة في الشرفة على كرسيّها الهزاز تسبّح.. وهي في ثياب الصلاة الناصعة تصلّي.. وهي متكئة على الأريكة تصغي إلى المذياع بشغف، ثم تذكرتها على سريرها في رقادها الأخير غشّت الدموع عينيّ وأنا أبحث عن مسبحتها في أدراج الخزانة، لقد سحبوني يوم وفاتها سحباً ولم يحضروا لي سوى ملابسي وكتبي وأشياء أخرى صغيرة.. تركوا هنا دموعي الحارة.. تركوا رائحة جدتي.. تركوا صلوات شكرها.. تركوا مبسم ثغرها.. تركوا دفء حضنها.. تركوا شالها الأبيض الذي يغطي شعراً أحمر ناعماً.. تركوا كأس (البابونج) تضعه لي على طاولتي عند سهري.. تركوا أشياء كثيرة ظنوا أنها لا تهمني.. لم يدركوا أنها من أشلائي، ومن قطرات دمي، احتفظت بالمسبحة لنفسي بعد أن قبلتها شفاهي مراراً امتزجت فيها القبلات بالدموع.

خرجت إلى الشرفة.. النباتات ذابلة أرهقها رعد الشتاء، افتقرتْ إلى لمسات جدتي وإلى سماع صوتها، انحناؤها إلى الأرض يشتاق قبلة من تربة قبرها، وكأنها حقاً تفتقد روحها، بحثت عن عصفورَيْ الحب لأجدهما في غرفة الصالة والصمت الكئيب يلفهما.

لقد أدخلتهما عمتي وقاية من البرد، إنها تمر كل يومين إلى هنا لتسقي الزرع وتطعم العصفورين وتنفض الغبار عن الأثاث، أسفت على العصفورين لا يغرّدان وكأنهما أيضاً مازالا في ثياب

Scanned by CamScanner

العزاء، نحن الأربعة فقط نعلم من تكون جدتي.. إنها روح هذه النباتات.. وزقزقة هذين العصفورين.. ورفرفة قلبي الصغير، فقدانها فراغ كبير في الحياة، وهذا البيت الذي عشت فيه أربعة عشر عاماً ما عاد لينضح بأيّ روح للجمال أو المتعة، وكأن كل قطعة أثاث فيه خرساء لا تحكي من دون جدتي، ولا تعرف لوناً للحياة، لقد اشتقت إليها كثيراً.. وعدتني أن تزورني في الأحلام ولم تفعل حتى الآن.. جدتي.. كم أنا بحاجة إليك..!

أقفلت الباب وتابعت طريقي في البحث عن الأمان إلى بيت أمي، قلت لنفسي لعلّي أجد لديها منهلاً لظمئي.. منهلاً تركته منذ زمن.. أو ربما هو من تركني، لكنني لم أعتده.. ولم آلف أن أرتشف منه، فهل يدفعني ظمئي إليه رغماً..! كان كل من صبا ولؤي متسمّرين يحدقان في التلفاز، سلّما عليّ سريعاً وعادا ليتابعا برنامجهما المفضل بشغف عجيب، زوج أمي يتصفّح الجرائد، جلست دقائق معه زادت من حنقي وكآبتي.

شعرت أن المجلس ليس بمجلسي وأن هذه الأسرة لن تكون يوماً ما أسرتي، كانت أمي تتابعني بعينين قلقتين.. أحبك يا أمي.. أحبك وأنت بعيدة عني رغم هذه الخطوات التي بيننا.. مهما ولجت في أعماقي.. لن أقدر أن أدلي بدلوي إليك.. لا أدري لِمَ.. بل ويؤلمني ذلك.. هذا الوجه الملائكي.. لم أعرض عنه؟.. وتلك اللهفة المعذبة.. لِمَ أزيدها عذاباً؟ دخلت غرفة

أخرى أواري فيها دموعاً حائرة، لحقت بي أمي.. سألتني بلوعة.. ابنتي.. ما بك..؟

نظرت إليها بأسى وعتب.. ابنتك؟.. هل تذكرت أن لك ابنة..؟

ضربت صدرها بيدها وقالت.. ويحي.. ومتى نسيت ذلك يا أمل..؟

- نسيت.. العمر كلّه.. منذ أن شرّدت حياتي أنت وأبي.. كيف جدتما عليّ بهذا الضياع.. كيف..؟

ضمتني إلى صدرها وراحت تمسح دموعي بيديها الناعمتين.. ما كنت لتلوميني على ذلك من قبل..

يبدو أن وفاة جدتك تركت بالغ الأثر في نفسك..!

- لِمَ عجزت أن أكون رابطاً بينكما كغيري من الأطفال..؟

- كان الفصام بيننا أكبر من فرحتنا بك يا بنتي، كانت أفكاري في واد وأفكاره في واد آخر، يبحث عن العزلة والانطوائية.. وأبحث عن المجد والشهرة، أطالبه بثمن فستان فيأتيني برطل من الفضيلة، وددت أن يكون بيننا حب يستر تلك العيوب، لكنني ما كنت أشعر به إلا.. وصمتت وشردت عيناها في تذكر طويل.. وكأن العامين كانا حلماً.. حلماً فحسب.. ولولاك.. لما حسبتهما من عمري.

Scanned by CamScanner

عجزت عن فهم كلماتها الأخيرة، لكنني أحسست بوطأتها على أعصابي، انسللت من بين ذراعيها، اختطفت محفظتي وتركتها غائصة في الذكرى دونما تحية، مشيت في الشوارع هائمة على وجهي لا ألوي على شيء ، السماء برحبها تضيق بي. أنفاسي محشرجة لا أستطيع أخذها إلا بصعوبة .. أفكاري مبعثرة.. جوارحي مضطربة.. لا أدرك أنا نفسي أين أمشي.. وعمَّ أبحث.. ولماذا أبكي..؟؟؟

ذهبت صباح اليوم التالي إلى الكلية بعد أن أمضيت ليلة مضنية كئيبة، جلست على المقعد وعيناي تتجولان بحزن في أرجاء القاعة، وصمتي ينضح بألف آهة وآهة، وبينما كنت أنقّل ناظري رأيت شابين من بينهما ذاك المترف الكسول الذي حدثتني عنه علا، كانا واقفين قبالة باب القاعة يرنوان إليّ عن بُعد ويتهامسان، تجاهلت الأمر وانكببت على نفسي لا رغبة عندي في الحديث مع أحد.. أين أنت يا علا..؟.. كم أفتقدك..!

أنهى الدكتور محاضرته وخرج من القاعة، نهضت لأحمل كرّاستي وقلمي وإذا بشاب وقف بجانبي يستأذنني.. لو سمحت..! التفتّ لأرى الشاب المترف يتحدث معي بكل لطف..

لقد فرغ مداد قلمي في منتصف المحاضرة و لم أستطع تدوين بقيتها، هل تأذنين لي بأخذ كراستك لإتمام النقص لديّ..؟

Scanned by CamScanner

- لكنها غير مرتبة بعد، وقد اعتدت تبييض المحاضرات في المنزل!

- أستطيع إذن أخذها غداً.

- لا مانع لديّ

- أراك غداً.. إلى اللقاء..!

.. يا له من شاب لطيف، لِمَ يتحدثن عنه بهذه الفظاظة؟ لا يبدو عليه الغرور أبداً بل إنه مهذّب للغاية، ويبدو أنه ابن ناس!!

Scanned by CamScanner

-٥-

..في لحظات الوحدة.. بل في لحظات الوحشة.. يأنس المرء بأيّ صوت، وبأيّ عارض يعترض فراغ حياته، ويودّ لو يسلي به ألم العزلة.. تلك العزلة التي تفرضها نفسه عليه وسط جمع غفير من البشر، أحضرت المحاضرة لذاك الشاب، وكنت قد عنيت بها وكأنني اهتممت للأمر أكثر مما يجب، لكنه لم يترك لي فرصة لمعاتبة نفسي على اهتمامها، فقد وجدته أمامي فور دخولي إلى الكلية وكأنه كان ينتظرني..- صباح الخير- أهلاً..

تبسّم بصمت لأفهم بنفسي ما يريده، ناولته الكرّاسة فتشكّرني بابتسامة ووعدني بإعادتها غداً، وجدت نفسي أنتظر اليوم التالي وتساؤلات كثيرة تراودني حاولت عبرها استنطاق كل حواسي، واستدراج فطنتي وذكائي.. لطافته غير عادية.. نظراته تحمل أكثر من معنى.. اختياره لي بالذات لإعطائه المحاضرة.. أشياء كثيرة شغلت فكري وجعلتني أتساءل بحيرة عن ذاك الشعور الغريب الذي بدأ يتسلل إلى كياني برقّة وصمت.. إنه يتسرّب بين أوصالي كماء رقراق وينسيني ولو لبرهة جلّ آلامي..!

عند صباح الغد المنتظر كانت الشمس مشرقة رغم لفحات البرد اللاّسعة، والجو صاف يغطي عكر الغيوم، وضباب البخار

Scanned by CamScanner

الدخاني يتصاعد من الأفواه في لوحة باردة دافئة، التقيت به كيوم أمس ينتظرني بشوق واضح.. في وجهه سمرة صافية، وعلى شاربيه تحكي الرجولة أحلى أغنية.. عيناه أليفتان وسوادهما يلمع بوميض من الذكاء الحاد.. أناقته لا تخفى عن عين ناظر.. يزيد من جمالها جسد رشيق يثب على الأرض وثباً.

.. ابتسم برقة.. صباح الخير

- صباح الخير.

- في الواقع.. لقد وعدتك بإحضار الكرّاسة لكنني أعتذر الآن.

- لماذا؟

- لقد اطلّعت على محاضراتك وأعجبت كثيراً بترتيبك وطريقة تدوينك للملاحظات، إنها أمور تعين كثيراً على الحفظ، وخاصة لشاب كسول مثلي..! ونظر إليّ يريد تعليقاً على جملته الأخيرة.

أجبت بتردد.. إن كنت نقطة في بداية إنهاء هذا الكسل، فهذا أمر يسعدني..!

تبسّم ونظر إليّ بحرارة حتى أن نظراته جعلتني أتسمّر مكاني وأناملي تداعب كتابي وكأنني أنتظر حديثاً آخر! وليقطع دابر الصمت قال بحذر.. الجو جميل اليوم.. ثم حكّ رأسه وهو يقول:

Scanned by CamScanner

أراك وحيدة هذه الأيام..!

- صديقتي في القرية لأمور عائلية.

- أليس لك أصدقاء غيرها..؟

- هكذا أرتاح أكثر..!

- اسمك أمل أليس كذلك؟. لقد قرأته على الكرّاسة.. اسم جميل.. وأنا اسمي علاء.

- تشرّفنا.. لقد حان موعد المحاضرة، الطلبة يدخلون القاعة.

- حسنٌ، سأعيد إليك الكرّاسة بعد أيام قليلة.. ونظر إليّ نظرة أخيرة ثملة.. إلى اللقاء..!

مضى مسرعاً أمامي وعيناي تحملقان فيه، استندت إلى الجدار ورائي لألتقط أنفاسي وألملم شتات حواسي، لم أستطع تفسير ما يجري في أعماقي.. إلا أن ذاك الماء الرقراق في أوصالي بدأ يتحول إلى غدير فيّاض.. وقد يصبح شلاّلاً هادراً، بدأ شعاع نور يسطع في سماء أيامي الداكنة ويهبها شيئاً من لون الحياة، منيت نفسي أن القدر سيضحك لي، وبمرور الساعات شعرت بأشياء حياتي تتغير.. لا.. بل أنا من تغيرت.. بتّ أنظر إلى ما حولي بمنظار بهيّ..

لم أعد أرى الأشجار عارية من زينتها.. بل هي في تجرّد تام للطبيعة، لم أعد أرى السماء مكفهرة بالغيوم.. بل هي أنين

Scanned by CamScanner

السماء بعشق الأرض، لم أعد أنقبض برؤية البرق وسماع الرعد.. بل صرت أخرج إلى الشرفة وأعرَض نفسي لتيار من الماء المنهمر وسط دهشة إخوتي وأنا أشعر بأسطورة الزمان على صفحة الأيام، تراتيل منغّمة يخفق بها فؤادي وتهفو بها كل أحاسيسي، ما رأيت من الحب إلا لهفة المنتظر وخفر العذراء.. غير أني سرعان ما سلّمت جوارحي إلى مافيه من جمال، وكأنني عشت يقيناً أنه دوائي الناجع من أزمات واقعي الموجعة..!

.. رويداً.. رويداً.. بدأت أصحو من سُكْري وأعاين نفسي، لعلّ كل ما كان مجرد استلطاف عابر أو تسلية عابثة، بل ربما كان من وحي أفكاري ورسم خواطري وأشجاني، وأجد نفسي عائدة على أثري إلى رياضه كلما أطللت على واقعي الشاحب.. آه.. ما الذي دهاني..؟.. بل ما الذي يجري معي.. ولِمَ يجري معي أنا..؟ هل آن الأوان أن تبتسم لي الحياة؟ أيعقل أن أكون في غمرة من الأحزان ثم أجد نفسي فجأة أتزحلق على قوس قزح.. أين أنت يا علا لتجيبي على كل أسئلتي..!

صبّرت نفسي بلقائه الموعود لإعادة الكرّاسة، بت أروح إلى الكلية بلهفة كي أتحقق من صدق أحلامي، وأغدو نجيبة لغيابه المتواصل، وأعود فأتذكّر ما تحدثت به علا عن دوامه المتأرجح.. وكلما رحل يوم دون لقائه أقنع نفسي أنني كنت أحلم.. أحلم

Scanned by CamScanner

.. وأخيراً.. وبعد أيام ثلاثة رأيته عن بعد، كان يتحدث مع صديقه، لم أشعر بنفسي إلا وأوصالي تضطرب وقلبي يخفق وعيناي تغزلان وتطرفان حائرتين بين الفتح والإطباق، وحين شاهدني ابتسم سريعاً واعتذر من صديقه وجاءني يمشي بكل زهوّ وجسده ينطق مفعماً بحيوية الشباب.. مرحباً.

- أهلاً!

- أحضرت لك الكراسة - شكراً جزيلاً!

- عفواً.. أرجو أن تكون قد أفدت منها

- بالطبع.. ثم تردد قليلاً وهو يقول ناظراً إليّ بطرف عينه.. وددت لو كانت معي لفترة أطول، وكأنني فهمت قصده لكنني سألته متغابية وعيناي تطرقان أرضاً.. لماذا؟

فأطرق هو الآخر رأسه وقال بصوت خافت.. لأنها منكِ؟

لم أعلّق على جوابه رغم أني انتشيت به من الأعماق، وعمدت إلى تغيير الموضوع سريعاً..

لقد تغيبت عن الكلية ثلاثة أيام متواصلة.

فسأل وكأنه يستنطقني كما تعمّدت استنطاقة..هل انتظرتني لأجل الكرّاسة..؟

Scanned by CamScanner

أطرقت رأسي حائرة في الجواب ثم تركته معلّقاً وقلت وعيناي تنظران إليه بابتسامة حييّة.. ربما..! تبسّم بسعادة بالغة حتى أن شفاهه افترّت عن ضحكة وومض من عينيه أمل كمن تصيّد طيراً ليصل إلى سرب من طيور..!

يبدو أن درجة حرارة الموقف قد ارتفعت سريعاً وكان عليّ أن أتفادى لفحها فاعتذرت منه للعودة إلى المنزل، قال بلهجة طفولية بريئة وعيناه ترجواني بصدق.. ابقي قليلاً..!

- آسفة.. لقد تأخرت.. إلى اللقاء..!

وكأنني رحت أستجمع قواي لأخرج من ديدنه وقد جذبني إليه كريح تدفعني وأنا أمشي عكس تيارها، ما إن خرجت من حقله المغناطيسي حتى شعرت بروح جديدة تدبّ في أوصالي وترغب في تحريك كل عضو من أعضائي، كما لو عاد الزمن بي عشر سنوات إلى الوراء.. كم تمنيت أن أتابع سيري على الأقدام وأنا أمشي وأثب وأقفز.. أترنّح وأتمايل.. أشدو وأغني.. كالأطفال تماماً.. وددت لو أقف في وسط الشارع وأوقف سير كل السيارات وأفتح ذراعيّ وأدور وأدور وعيناي معلّقتان بالسماء.. وأضحك عالياً.. عالياً حتى السماء. وخشية أن أصدق نفسي وأهبها مبتغاها آثرت ركوب الحافلة وقد طاش بي صوابي فقطع بي السائق أشواطاً قبل أن أنتبه أنني وصلت إلى المنزل..!

Scanned by CamScanner

-٦-

.. ما أجمل الوحدة تداعب طيفي ، وما أصدق الصمت يحاكي بوحي، ها أنذا أعتزل أسرتي خشية أن يفتضحوا أمري من بين عينيّ، وكأن بالي غدا أطول.. وصبري أكبر، لم تعد تضايقني ثرثرة إخوتي أو نظرات زوجة أبي فأنا عن كل ذلك قد بتُّ مشغولة، طلبت من والدي إحضار عصفورَيْ الحب من منزل جدتي رحمها الله، عهدت رعايتهما وقد تمتنت أواصر صداقتي بهما، حتى أنني صرت أسمع تغريدهما وكأنني أسمعه أول مرة، فيه نغمة خفيّة تحكي أسرار القلوب، وأحاكي نفسي أحياناً.. أتراهما يغزلان قصة عشقي بلغة العصافير؟ يا خوفي أن يترجم أحد لغة العصافير يوماً ويكشف سري الذي مازال مدفوناً داخل سويداء قلبي.. وفي جدائل شعري البتولة.. وما بين شفاه ثغري.. أفكر بعلاء طوال الوقت.. بين الكتب.. وقت الطعام.. قبل النوم.. عند الصحو.. حتى في الأحلام أراه. بوجهه الوسيم ومظهره الأنيق.. شاب أسمر جذّاب.. عيناه سودوان براقتان.. ابتسامته رائعة مترامية الأطراف.. قوامه رشيق يضجّ بالحياة.. حركاته توحي بخفة ظلّه. ودماثته تحكي أصالة طبقته، لم أفكر يوماً كم يحمل من النقود، بل إنني حين أراه أنسى أنه هو الشاب المترف

Scanned by CamScanner

الذي تلوكه الكلية لغواً، ويتراءى لي أنهما شخصيتان في شخص واحد لا يرى فيهما كل امرئ إلا ما يحكي انطباعه، فمن يقيّم الناس بالجاه والثراء لا يرى علاء إلا بمنظارهما، ومن يقيّم الناس بحسن الخلق وطيب المعشر لا يرى علاء إلا بمنظارهما، وأنا ممن رأيت فيه كل طيبة ودماثة خلق.. بل إن تذكري لجاهه وثرائه يجذبني إليه أكثر، لأنهما لم يغيرّا من طبعه شيئاً فيشوّهه بكبر أو تعجرف. حتى أنه ارتاح لي بل وربما أحبني من بين الكثيرات حوله رغم أنه لا يوجد فيّ ما يميّزني عنهن سوى قلب يهفو له بكل حب وكل خير..!

عاد وتغيّب يومين آخرين شعرت فيهما بشوق كبير إليه، وكأن الكلية لم تعد تطاق من غيره وكأن القاعات لم تعد تضيء بغيابه.. ورحت أسائل نفسي أتراه يعود فيتعمّد الحديث معي بعد أن انتهى من الكرّاسة؟ هل هو يحبني حقاً أم أنه مجرّد إعجاب؟ إن كان حباً صادقاً فهل يبغي بعد هذا أمراً حاسماً؟ أم أنه سيسيّر الأمر ببرودة أعصاب؟.. شاب ثريّ لا يكلّفه أمر إعداد منزل الزوجية أدنى اهتمام.. يستطيع أن يخطب اليوم ويتزوج غداً، أما دراسته فهو على ما يبدو يعدها وسيلة للتسلية وملء وقت الفراغ، وإن شاء متابعة دراسته فأنا خير من تهتم به وتشجّعه عليها.. إذنْ. لا عائق يقف أمامنا، ومن الضروري- والحال هذه- أن يقوم بخطوة يجعل فيها العلاقة رسمية، حينها يثبت لي

Scanned by CamScanner

صدق النية وإخلاص الطلب، حتى وإن كانت الخطوة سريعة وعلى عجل، فهذا خير لي، إن الصراع داخلي بين عواطفي وما يمليه عليّ ديني وعقلي، فلا استعداد عندي مهما أحببت لشيء من أنواع العبث، وتبعاً لذلك كان عليّ أن ألمح على نحو غير مباشر لأمر الخطبة وقد تأكدت إلى حدٍ ما مبادلته لمشاعري.

كنت عائدة من المنزل حين راح يناديني من ورائي على عجل.. أمل.. لِمَ أنت دائماً مستعجلة؟

- أهلاً علاء.. هل كنت في القاعة؟ لم أنتبه إليك؟

- في الواقع لم أحضر المحاضرة.. جئت لأراك..!

سعدت بكلماته لكنني تعقّلت وقلت: لكن هذا لا يمنع من ذاك..!

- سئمت تكرار المحاضرات ذاتها كل سنة. ثم قبض كفيه على بعضهما وزمّ شفتيه وتجرّع جرأة وقال كمن يقذف قنبلة وينتظر أتنفجر عليه أم لا: ما رأيك أن نتناول الغداء معاً؟ وكوني قد أعددت لموقف كهذا فقد كان جوابي سريعاً وبلهجة جافة لأوّل مرة..

- بأيّ صفة تجمعنا..؟ أنا من أسرة محافظة ولم أعتد الخروج مع أيّ شاب.

Scanned by CamScanner

نظر إليّ مبتسماً وكأنه يغويني وراح يقول: وهل أنا كأيّ شاب؟

أطرقت رأسي قائلة: حتى الآن أنت كذلك.. أستأذنك؟

رجعت والسعادة تغمرني أن تجرّأت في موقفي وأثبت قوة في شخصيتي رغم أن أعماقي كلها تهيم به وقلبي مطواع له، لكنني تساءلت بحيرة من أمري عمّ سيكون موقفه بعد الذي جرى، ومن ثمّ اهتديت إلى أحد احتمالين.. إما أن يراني لست مجالاً للهو فيتركني وشأني ، وسأبتلع حينها كل غصصي راضية بقدري، وإما أن يوثّق أحاسيسه ويدرك قصدي فيطلبني، ووفّقت إلى الاحتمال الثاني حين جاءني في اليوم التالي معتذراً وهو يقول:

- أعتذر كثيراً عما بدر مني أمس، لكن يبدو أن جرأتي خانتني ولم أستطع أن أبيّن لك قصدي، بالتأكيد إن طلبي لجلوسنا معاً ليس هراءً بل إنني أبغي عبره تحديد أمور لخطوات ستتطور تباعاً .

- تستطيع أن تتكلّم هنا..

- هنا؟.. في الكلية.. ووسط هذا الصخب..؟.. مستحيل..!.. لن أستطيع أن أتفوّه بكلمة..! كنت خجلة وحائرة في الوقت نفسه، وكأنني أطلب منه إقناعي بطلبه كي أملك جرأة في تنفيذه فأبرّئ نفسي من ذنبها أن السبب كان مقنعاً.

Scanned by CamScanner

- لكنني لم أقم بأمر كهذا من قبل.. الأمر لديّ ليس بالسهولة التي تتصوّر..!

قال بذات اللهجة الطفولية وذات العينين الراجيتين.. صدقيني.. لن نتأخر!

صمتُّ طويلاً ورحت أنقّل نظرات حائرة بين سماء صامتة لا تسعفني بجواب، وبين أشجار عارية وصخب طلبة ترنو أعينهم إلينا قليلاً ثم تدلهمّ، أطرقت رأسي وهو ينتظر جوابي ثم قال. هل نذهب؟ أشرت له بسبابتي مشترطة.. لن نتأخر. فقال مبتهجاً.. لن نتأخر أدخلني إلى مطعم راق لطالما سمعت عنه لكنني لم أتصوّر أبداً أنني قد أدخله.. ومع من..؟ مع زوج المستقبل..! مع من خفق القلب له بكل صدق..! شعرت لأول مرة بأنوثتي مفعمة أمام شاب، فقد راح يعاملني بكل لباقة تماماً كما أشاهد في المسلسلات.. يقدّمني أمامه في الدخول.. يخيّرني الطاولة.. يخيّرني الطعام.. يفتح لي علبة العصير.. وأشياء كثيرة أنعشتني من الأعماق، وجعلتني ألوم نفسي أن كنت سأحرمها إحساساً كهذا..!

كان الحياء يغمرني من فرقي إلى أخمص قدميّ في حين كان دخوله هو إلى هذا المطعم الفخم أمر ارتيادي للغاية ، حتى أن نظرات العاملين إليه توحي أنهم ألفوه، طريقة جلوسه.. تناوله

Scanned by CamScanner

الطعام بكل خفة ولباقة.. حديثة معي.. نظراته العميقة إليّ والتي تسبر أغوار قلبي.. كل هذا جعلني أتخيّله كنجم من نجوم السينما.. يبهر الأضواء ويأسر القلوب، بالتدريج خفّت وطأة الحياء عني وبدأت أتحدّث معه بكل عفوية وبساطة.. بكل صدق ودماثة، وكأن اجتماعنا على هذه الطاولة في هذا المكان الشاعري أصدق تتويج لمشاعرنا وتوضيح تام لهويتها. كانت الموسيقا هادئة هدوء البحر في ليلة صيف.. ناعمة كملمس وردة جورية حمراء.. قريبة إلى النفس كولوج الإبرة في سمّ الخياط.. وعلى أنغامها تواتر حديثنا الرقيق الهادئ، بدأ يسألني وقد رأى عينيّ تنقّلان النظر في هذا المكان المخملّي بكل إعجاب.. لأول مرة تأتين إلى هنا؟ أجبت بكل بساطة.. أجل..! قال: حدثيني عن حياتك.. ووضعك.

ازدردت ريقي وقلت: قصتي طويلة.. باختصار.. والداي مطلّقان منذ نعومة أظفاري، نشأت في بيت جدتي، أما أمي فتزوجت ولها الآن ولدان، وأما أبي فتزوج أيضاً وعنده ثلاثة أولاد، توفيت جدتي منذ فترة قريبة وأنا الآن في بيت أبي.

- إذن أنت وحيدة..!. أنا أيضاً وحيد ولي ثلاث أخوات.

ضحكت وقلت.. ليس بالضبط.. بل لي خمسة إخوة، صبا في الصف الثامن ولؤي في الصف السادس وهما من أمي يعيشان في

Scanned by CamScanner

دلال ورفاهية حتى أن زوج أمي وضعهما في أرقى مدارس المدينة، لكن تصرفاتهما لا تعجبني دائماً خصوصاً صبا أصبحت فتاة يانعة و لم ينضج عقلها بعد، أما من أبي فمحمد في الصف الأول الثانوي ورغد في الخامس ورهف في الرابع، وحياتنا نحن الأربعة عادية بكل معنى الكلمة، هذه هي حياتي.. وهذا هو وضعي..!

كان يتأملني طوال الوقت ثم قال بابتسام.. وهل لإخوتك فحصة جميلة كتلك التي على خدّك..؟

ابتسمت فتغلغلت عيناه في تلك الفحصة أكثر ثم أردف يقول.. ماذا يعمل والدك..؟

- محاسب في إحدى شركات القطاع الخاص، عند محسن الأحمد.

قال بتعجب ودهشة.. حقاً.. أتعلمين أن محسن الأحمد خالي..!

قلت بسعادة.. يا لها من صدفة..! وعلى سبيل المزاح قلت: هيّا قل لخالك أن يكرم مثوى والدي..!

- بالطبع سأفعل، فخالي لا يردّ لي طلباً مهما كان، فكيف إن عرف أن المحاسب عنده سيكون عمّ المستقبل..؟ وراح ينظر إليّ

Scanned by CamScanner

بحب عارم وجرأة كبيرة جعلتني أواري وجهي عنه وقلبي يذوب من الأعماق، ثم عدت فتعمّدت الجديّة في الحديث.

- ولكن بصراحة أشعر أن الفرق الماديّ بيننا كبير للغاية، نحن من أسرة متوسطة، وأنتم.. قاطعني بسرعة.. هذا أمر لا يهمني مطلقاً، ولكن.. ربما يهمّ أهلي.. ثم صمت وصمتُّ أنتظر منه استطراداً في الحديث.. هذا ما دفعني للحديث معكِ، فأهلي قد لا يتقبلون الأمر بسهولة وهذا يحتاج مني إلى مهلة من الوقت، كما أن وضعي الدراسي المتعب قد يكون حجة كبيرة لديهم لمنعي.

- بالنسبة إلى وضعك الدراسيّ فهذا أمر يتوقف على همتك ونشاطك، وحالياً أنا لا أطالب إلا بصفة رسمية تربطنا وتتوّج مشاعرنا، أما عن رأي أهلك بي وبوضعي فهذا يتوقف أيضاً على قناعتك بي، وقدرتك على إقناعهم بقناعتك، أم أنك غير مقتنع بي بعد..؟

- لا.. مقتنع.. ولكن.. ماذا لو لم تحدث الخطبة..؟

قلت مستغربة وكأنني أستقطب كوامنه.. تتحدث وكأنك متوقع أمراً كهذا..!

فنظر إليّ مبتسماً.. إنني أمزح..!

- ما يهمني الآن يا علاء هو اهتمامك الجديّ بدراستك وابتعادك عن مجالس اللهو والترف وأصدقاء الثراء، كل ذلك لن يغني حياتك بشيء سوى تفوقك وعملك الصالح.

Scanned by CamScanner

- وكأنك تريدين تغيير حياتي كلّها..!

قلت بصدق.. ليتني أقدر..!

- لكن التغيير لن يكون بين عشية وضحاها، ثم إنني اعتدت نهجاً معيناً من الحياة يصعب عليّ تغييره وأنا لا أريد أن أظلمك في المستقبل بفرضي عليك هذا النهج، كما أنني لا أرغب بظلم نفسي بمنعها عنه.

كنت أريده بصدق وأخشى نفوره مني حتى لو اضطرّ الأمر أن أقبل به على ما هو عليه إلا أموراً جوهريّة علنا نتفق عليها معاً فيما بعد، قلت له:

- وأنا أيضاً لا أرضى لك الظلم، لكنّ التفاهم والتعاون بين الطرفين هو أساس الحياة الزوجية رغم أن شكوكك بدأت تخيفني ألا تكون بيننا هذه الحياة.

- لا تخافي، أمهليني لشهر فقط لأهيّئ الوضع لأسرتي، هل أستطيع في أثناء ذلك الاتصال بك في المنزل؟

ابتسمت وأنا أنهض من مجلسي وقلت له.. ليس قبل الشهر، دعنا نمضي.

وحين عدت إلى المنزل كنت متشوّقة أيّما تشوّق أن يحلّ الليل، فيتغمّدني بسكونه، وأفرغ عبره ما في جعبتي من خواطر واستذكار لكل حركة وهمسة وبسمة، دخلت غرفتي أول المساء

Scanned by CamScanner

متذرعة أنني سأصحو باكراً، أغلقت الباب وأطفأت النور، وتمددت على السرير ورحت أشدّ الدثار إليّ بقوة وسعادة وأنا أتذكر نظراته المثيرة التي كانت تملؤني خفراً.. لقد استعر القلب بلهيب حبه وعلى دخانه رسمت أجمل الصور وأبهى الأحلام، شعرت بنفسي أميرة حقيقية في ثياب رائعة وهو يدخلني إلى قصره الزجاجي وعيون الناس ترمقني وفتيات الجامعة تفور أعينهن غيظاً وكمداً، تخيّلت كيف ستكون حياتي معه، وكيف سأتأقلم مع نهجها بروح محبة متسامحة.. وسأغيّر هذا النهج بالتدريج بحيث لا يشعر هو بتغيّره.. أريد أن أصنع منه بطلاً قوياً طموحاً راسخاً.. صحيح أن الكثير من طباعه وصفاته لا تناسبني، بل وأحياناً تضايقني، لكن حبي له يغمرها جميعاً ويعدني بتغييرها جميعاً.. أريد أن أصبّ عنفوان شبابه في بوتقة الدراسة والعمل.. أن يتحلّى بالجدية في أقواله وأفعاله، لكنني ومع كل هذا التغيير سأحافظ على رونق كلماته وبهاء حبه وسأزيده توقداً واضطراماً.

توالت ساعات الليل وداء الهوى لا يبرحني، خرجت إلى الشرفة في غسق الدجى والريح ترسل هواءً قارساً، رحت أناجي نجوم السماء وهي تتلألأ وكأنها تناجيني عن بعد، رأيت القمر يشعّ بريقه الساطع ويحكي قصص العاشقين بصمت بليغ، لم أعد أرى فيه تلك الحجارة التي تكوّنه، بل بات وجهه يحكي تراسيم وجه علاء غير أن وجه علاء يكون دوماً أقرب لي.

Scanned by CamScanner

-٧-

.. لشدّ ما يعوز الشباب الكوابح (الفرامل)، لا ليضعها تحت قدمه، بل ليضعها في جمجمته وبين أحلامه.. أحلامه التي تتهافت وتتراكض وتكبر وتنضج وتسبح في بحر السماء.. تصبح أشجاراً يانعة، وسرباً من طيور مغرّدة، وأشياء كثيرة وجميلة قد لا نرى منها على أرض الواقع إلا القليل، وهذا هو شأني وشأن أحلام يقظتي، أعلم أنها تتكاثر وأتمنى لو أحدُّ من تكاثرها ، لكنني أرى في الأحلام جمالاً لم أره قط على أرض الواقع..

.. بعد ذاك اللقاء المثير ذهبت إلى الكلية و لم أنم ليلتها إلا ساعات الفجر الأولى، كنت لهفى لرؤيته.. أتراه أمضى الليلة كما أمضيتها، كنت عطشى لسماع كلمات غزله ونظرات حبه رغم حيائي من كل ذلك، سمعت صوت علا ورائي وهي تناديني، رحبت بها بكل شوق وقلت لها:

- يا ظالمة.. عشرة أيام تتغيبين، وقد قلت لي أياماً قليلة..؟

- اسكتي.. لم أصدق متى أصل إلى هنا، إجراءات حصر الإرث مرهقة وتتطلب أياماً طويلة غير أن غيثاً ولد نجيب. لقد كرّس كل وقته لإنهاء الإجراءات بأسرع وقت.

- ولِمَ لم تتصلي بي كل هذه المدة..؟

Scanned by CamScanner

- تعلمين أن هواتف القرية قليلة، وحضرتك تمضين معظم وقتك في الجامعة، يعني حتى لو سعيت لذلك لما وجدتك في المنزل.. ها.. أخبريني كيف حالك؟ وكيف حال الكلية..؟

- على خير ما يرام.. أما الكلية فقد ارتاحت من ثرثرتك، وأما أنا فقد ضاع نصفي الثاني وبت موضع أنظار الطلبة كمن ينظر إلى رجل أعور العينين..! أنت حدثيني.. كيف أمضيت وقتك في الريف الجميل..؟

قالت ببساطة.. عادي جداً.. أمضيتها بالأكل والنوم والذهاب لعند المحامي وإجراءات الحصر ومشاويرها بين القرية والمدينة.

- وتركت الطبيعة الخلاّبة..؟

قالت بتهكم.. وا لله نسيت أن أقف تحت المطر وأنا أناجي وأقول..

ثاوٍ على صخر أصمّ وليت لي قلباً كهذي الصخرة الصماء
شاكٍ إلى البحر اضطراب خواطري فيجيبني برياحه الهوجاء..!

وبينما نحن نضحك جاء علاء وهو يتمتم لي.. من لاقى أحبابه نسي أصحابه..!

تبسّمت وقلت له بحياء.. أنت الخير والبركة.. أهلاً علاء.. كيف حالك؟

Scanned by CamScanner

كان سؤالي عاديّاً في ظاهره لكن عينيّ تسألانه عن حاله بعد تلك الجلسة الشاعرية، اكتفى بصمت ونظرات خلاّبة تهيم شوقاً دون أن يأبه بعلا التي راحت تنظر إلينا فاغرة الفاه شاخصة البصر، قطع نظراته صوت صديقه يناديه فاعتذر وذهب، وما إن أدار ظهره حتى فوجئت بضربة موجعة على جذعي من مرفق تلك الثائرة وهي تقول لي بأسنان تصطكّ غيظاً من الدهشة والفضول:

- ويحك.. ما الذي جرى في غيابي؟.. ما الذي أصعدك إلى برجه العاجي؟

قلت وأنا أتألم: رويدك كدت توقعيني أرضاً.. هل تريدين أن تُبتلي بي؟

قالت بحزم وفضول.. تكلّمي وإلا ابتليت بك فعلاً!

فقلت محاولة الابتسام.. يا مجنونة.. إنه سلّم الهوى..!

- هيّا حدثيني من البداية

- والمحاضرة..؟

- لا محاضرات اليوم..!

أجلستني على كرسي في حديقة الكلية وكأنه كرسي الاعتراف وجلست بجانبي تستجوبني وتحقق معي، تارة تفغر فاها

Scanned by CamScanner

من الدهشة، وتارة تقطّب حاجبيها من الغضب، وأخرى تفرج أسارير وجهها بالابتسام، كل هذا وهي تهزّ رأسها بإمعان، كانت تعابير وجهها تثير الضحك حقاً.. رويداً رويداً حتى خمدت نار الفضول في عينيها وارتخت أعصابها المشدودة وبدأت شفاهها تعرب عن ابتسامة عريضة، ومن ثم أمسكت بيدي وهي تقول بكل حب:

- لا أصدق يا أمل.. أكل هذه الأحداث جرت في عشرة أيام..؟ ها هي الأيام تضحك لك، ألم أقل لك: إنها ستضحك لك ذات يوم..؟ والآن أريد الحلوان. هيا اذهبي واشتري بسكويتاً وعصيراً وحلوى لأسدّ بها رمقي، جئت إلى هنا على لحم بطني!

قلت لها باستهزاء وأنا أضع يدي على جذعي.. طبعاً.. وتستحقين أكثر من ذلك خصوصاً بعد هذه الضربة القاضية، سأقول لغيث أن يسجّلك في أحد نوادي المصارعة الحرة!

قالت بحزن.. غيث.. واأسفي عليه..!. ماذا سيكون شعوره إن علم بالأمر؟

- لا تحكي له شيئاً يا غبية فالأمر لم يتم بعد، ثم إنني لم أرفضه يوماً، أوكلت للأيام مهمة ترغيبي به وحبي له، لكنها فاجأتني بعلاء الذي فرض نفسه على قلبي وأحاسيسي وكل كياني، لقد بت أشعر أنني أعيش حلماً أكبر مني.. وما اعتدته يوماً.. وما

Scanned by CamScanner

أخشى إلا أن أكون قد سرقته خلسة من غيري ويأتي يوم فيعود ويخطف مني وأعود أنا لقوقعة أحزاني وظلمة كوابيسي، لقد ذقت أخيراً طعم الراحة معه، ومحال أن أتخيل حياتي بعد الآن دونه.

- أمل.. في النهاية سعادتك هي الأهم لي، وإن كنت ترين سعادتك مع علاء فليبارك الله بكما، لكنني أنصحك ألا تنجرفي بمشاعرك. تريّثي قليلاً وضعي في ذهنك حساباً لكل شيء كيلا تصدمي يوماً بحقيقة لم تخطر ببالك..!

ضحكت وقلت: جاءت كلماتك متأخرة، لقد وقعت بفخ الهوى وتضمّخْتُ بآلامه وقدرة القادر وحدها تنجيني من شباكه..!

- هل نسيت أن امتحانات الفصل الأول قد اقتربت، إيّاك يا أمل أن تُشغلي عنها.

+ لا تخشي عليّ شيئاً فلكل زمان رجاله، ثم إنني كيف سأشجّع علاء على الجد والدراسة وأنا أهمل أمامه ما أوصيته به.

أطرقت رأسها وهي تفكر ثم قالت: ولكن أيعقل أن شاباً ولد وفي فمه ملعقة من ذهب وعاش لا يدرك قيمة للوقت أو المال لا يعرف من حياته إلا اللهو والعبث يأتي فجأة ويتحوّل أمامك إلى أشبه ما يكون بنابليون بونابرت، وفي غضون عشرة أيام، إنه زمن قياسيّ!

Scanned by CamScanner

- ألست أهلاً لذلك؟ أم أنني أول فتاة تعيد شاباً إلى جادة الصواب..؟

- لم أقصد ذلك، لكن الأمر ليس بهذه البساطة والرومانسية، لا تنسي أن حياته مليئة بالفتيات والسهرات.

قلت متضايقة: ولا تنسي أنه طلبني أنا من بينهن، ولعلّه اختارني لأنه وجد فيَّ ما يميزني عنهن. بخُلُقي والتزامي فشعر أنني الزوجة المطلوبة..!

- ألم تري أنك تسرّعت في الحديث له عن حياتك ووضعك؟ بل تسرّعت في اتخاذ القرار كلّه بشكل عام؟

- من الطبيعي أن يعرف شيئاً عن وضعي كي يتمكّن من خطبتي على بصيرة من أمره، أما أنني تسرَعت في اتخاذ القرار فهو خير لي من إمضاء وقتي معه والتفكير به دون أيّ مسوّغ رسمي.

- لِمَ لم تسأليه أيضاً عن حياته..!

- كان الوقت ضيقاً ثم إن حياته واضحة لكل من يراه، ما استجدَّ من معلومات لديّ أنه وحيد لأخوات ثلاث أيّ إنه الفتى المدلل.

تمتمتْ تقول.. يقول عنك وحيدة..! أرجو ألا آخذ من الأمور أكثر من أبعادها...!

Scanned by CamScanner

- ماذ تقولين..؟

- لا شيء، لكن كل ذلك يا أمل لا ينفي خطأك بخروجك معه، على كل دعينا مما مضى ولتمشِ الأمور بيسر الله وأسأل الله تعالى لك كل خير، والمهم أن تكرّسي اهتمامك للامتحانات وريثما تنتهي مهلة الشهر فلكل حادث حديث...!

..كانت كلماتها كمن يريد أن يوقظ أحدهم من غطيط نومه دون أن يعلم أنه يعيش حلماً يودّ ألا يصحو منه أبداً، حتى وإن علم أنه حلم..! أعلم أن علا تحبني وتتكلّم بتعقل لخوفها عليّ لكنها لم تذق ما عشته من أحاسيس وتباريح، ولم ترَ أن تلك الأيام العشر هي التي أحسبها من عمري وهي التي جعلتني أشعر بحق أنني عضوة في مؤسسة الحياة.

كنت ذات ليلة أتناول العشاء مع أسرتي حين رحت أتفحّص معالم وجه أبي، تذكرت حديث أمي عن انطوائيته وعزلته، وأدركت أنني أمتصّ من خصاله الشيء الكثير، هدوءه ..طيبته...حزنه العميق، تعمّدت الحديث معه عن عمله، قلت بحذر.. سمعت أن مديرك العام هو خال أحد زملائي في الكلية.. اسمه علاء راغب؟

قال وهو يمضغ لقمته.. راغب..؟ صحيح ! فصهره أحمد راغب يتردد عليه في الشركة كل فترة، هناك مصالح مشتركة

Scanned by CamScanner

بينهما. قلت على سبيل المزاح.. هل أتواسط لك عنده..؟ قال بأنفة: عملي هو واسطتي ، ولو لم يكن خاله واثقاً مني لما أبقاني عنده خمسة عشر عاماً.

- أليس عليه أن يغدق عليك بالحوافز بعد هذه المدة الطويلة؟.. لم نرَ من ذلك إلا اليسر اليسير!

- يابنتي.. غالباً ما يكون أبناء هذه الطينة من البشر ماديين، مهما كثرت عندهم المادّة يتعلّقون بالمال أكثر ويرغبون بجمعه حتى لو اضطّر الأمر لجنيه قطفاً من أفواه العوام من الناس، إنهم يدرّون على أنفسهم وذريتّهم بذخاً وبطراً، ويبخلون على الآخرين بأموال قد تخرج زيادة من أطراف جيوبهم، على كل حال.. الحمد لله ربنا ساترها..! وأنا مرتاح في عملي واحتكاكي بالمدير ضئيل لا يتعدى نطاق العمل، هكذا أفضل لي..!

حديثه عن أهل علاء لم يعجبني لكن عزائي أن علاء ليس كأهله، هكذا بدا لي أكثر من مرة، أما عن مظاهر ثرائه فلعلّ مستواه الطبقي يتطلبها، أو أنها أمور قد ترعرع عليها حتى لم تعد لتثير انتباهه بشيء.

Scanned by CamScanner

- ٨ -

تأخرت إطلالتي على أمي بعد أن تركتها ذاك اليوم مشغولة الفكر عليّ.. ربما صراحتها هي ما دفعني للابتعاد عنها قليلاً مع أنني أنا التي طالبتها بتلك الصراحة، ولكن.. أتراها قد حققت مع زوجها ما كانت تناضل في تحقيقه مع أبي..؛ كل من في الدنيا لا يأخذ إلا نصيبه، والقدر يضحك من حذر البشر، غير أنها في وضع أرقى مما كانت عليه عند أبي، ذهبت لزيارتها فرحبت بي بشوق وسألتني والدموع تترقرق في عينيها..

- لِمَ هذا الجفاء يا بنتي؟ لقد شغلت بالي عليك، تعطّل هاتفي لأسبوع كامل و لم يصلّح إلاّ منذ يومين، اتصلت بك مرتين و لم يتسنَّ لي الحديث معك.. مرة كنت في الجامعة ومرة كنت نائمة.

- أجل.. لقد أعلموني لكنني لم أجد وقتاً للاتصال بك.

داعبت وجهي بأناملها الرقيقة وهي تقول: لم تجدي وقتاً أم أنك عاتبة؟.. يبدو أن صراحتي قد خانتني ذلك اليوم، نسيت أن من أتحدّث عنه هو أبوك قبل أن يكون طليقي.

- ما من ولد يسعد بمشاحنات أبويه وتضاغنهما حتى لو كانا مطلّقين.

Scanned by CamScanner

- لقد كنت يومها كثيرة الحنق والضيق، ما الذي كان يضايقك..؟ ألست سعيدة عند أبيك؟ لِمَ لا تأتين وتسكنين عندي.. والله إنني أشتاق إليك..!

- لا يا أمي.. ليست الأمور بهذا التفاقم، كل ما في الأمر أنني كنت متضايقة وفي كرب من أمري، ثم بدّل الله تعالى بعد عسري يسراً، وها أنذا في أهنأ حالاتي.

- وزوجة أبيك ألا تضايقك..؟

- الحمد لله. خير من كثيرات غيرها، لا أسيء إليها ولا تسيء إليّ، ثم إنني أمضي معظم وقتي في الجامعة أو أمام الكتب للدراسة، وهي تمضي معظم وقتها في أعمال المنزل والزيارات، يعني أن أحداً لا يتدخل بشؤون الآخر، وهذه غاية الراحة لديّ..!

- وكيف هي أحوال دراستك..؟

- بخير والحمد الله، انتابني التقصير لأيام ثم عدت إلى الجد والعزم، وها أنذا أزورك قبل أن أعتكف على دراستي، فالامتحانات قريبة جداً وتحتاج إلى وقت وجهد.

وراحت تنظر إليّ بابتسامة ودهشة: أمل.. مالي أراك وضّاءة الوجه براقة العينين..؟

أفي الأمر سرّ..؟

Scanned by CamScanner

أطرقت وجهي الذي سرعان ما احمرّ وحاولت الإنكار عبثاً..أيّ سر تقصدين..؟ لاشيء..!

- أمل . أنا أمك وأنت ابنتي، فهل أتوه عنك..؟ صارحيني..!

صمت هنيهة ثم قلت بصوت حييّ: الأمر وما فيه أن زميلي في الكلية سيخطبني ولكنه طلب مني مهلة شهر يهيّيء فيها ظروفه. وبما أن المهلة ستنتهي وقت الامتحانات، فالأمر قد يمتدّ إلى العطلة الانتصافية أو ربما بعدها..

قبّلتني على وجنتي وكادت تزغرد من الفرحة، قالت والدمعة في عينيها.. سأشترط عليه مئة شرط قبل أن يأخذك مني..!

فقلت مازحة.. اشترطي ما شئت فسوف يأخذني، إنه ممتلئ ثراء.. يكاد يصاب بالتخمة..! والآن دعيني أمضي إلى الكلية قبل أن أتأخر عن موعد المحاضرة.

وقبل أن أذهب قالت لي: أمل .. سعادتي بحبك لا تمنعني أن أوصيك بالحفاظ على نفسك والتزام الحياء والخلق القويم ، لقد نشات نشأة إسلامية تحميك من كل خطأ، ولا تنسي ألارابط شرعيّ بينكما حتى الآن..!

- معك حق، وهذا ما يجعلني راغبة بتعجيل الأمر، في كل الأحوال أنا لا أراه إلا قليلاً، خصوصاً أن دوامنا بدأ يتضاءل لقرب الامتحانات.. إلى اللقاء يا أمي. ادعي لي بالتوفيق!

Scanned by CamScanner

- في رعاية الله وأمنه، سدّد الله خطاك وحفظك من كل سوء.

قبل أن أدخل القاعة سلّم عليّ علاء، وعرض عليّ أن نجلس سوّياً لنحضر المحاضرة، اعتذرت مازحة.. لن نعي حينها كلمة واحدة، لا بد أن علا تنتظرني في القاعة.

- إذن أراك بعد المحاضرة.

ترددت قليلاً وقلت.. لا بأس..!

دخلت أبحث عن علا فرأيت زميلتي فاطمة، رحّبت بها لكنها كانت تنظر إليّ نظرات مبهمة.. سألتها.. هل رأيت علا..؟

- لا.. ربما لم تأتِ بعد. ثم نظرت إليّ وقالت.. سبحان مغيّر الأحوال..!

لم أفهم قصدها فقلت لها.. ماذا تعنين..!

أجابت بابتسامة رزينة.. لا شيء، ولكن ليتك تنتبهين إلى نفسك جيداً، الجامعة مجتمع مصغّر لا يخلو من العيون الثاقبة والألسنة الجارحة، ولا تسرفي في الأحلام فليس كلّ ما يبرق ذهباً.. ها قد جاءت علا.. بالإذن..!

وهربت من تساؤلاتي وقد تركتني في حيرة من أمري، سألت علا.. ما بها فاطمة..؟

Scanned by CamScanner

- لا أدري..! أعتقد أنها رأتني مع علاء أكثر من مرة، ولكن أنت ما بك؟ أراك في همّ وغمّ .. تعالي نجلس.

- آه يا أمل.. يبدو أن الإرث بدأ يسبب لي المشاكل قبل أن أقبض أيّ مبلغ، ليتني لم أبلغ السن القانونية و لم أوجع رأسي بهذه الأموال، كنت مرتاحة و كفى...

- هل حدّثك أحد بشأن الإرث..؟ كم تبلغ حصتك تقريباً..؟

- يعني.. حوالي مئتي ألف ليرة ونيّف، ومع ذلك فالكلّ يطمع فيها، أنا محتارة.. سمعت آراء عدّة.. هل أودع المبلغ في المصرف؟ أم أعين به أخي الأكبر لشراء منزل أفضل؟ أم أشتري به حليّاً ذهبيّة وأخبئها؟ أم أفعل كبعض الناس.. أشتري بيتاً متواضعاً وأؤجره وأفيد منه؟

- وما رأي والدك؟

- لم يتدخل في الأمر بعد، رغم أن الكلام في هذا الشأن كثر، وأمي الساذجة حكت لجاراتها وصديقاتها عن الإرث المزعوم، أتصدقين.. لقد تقدّم حتى الآن ثلاثة لخطبتي في ظرف أسبوعين، وكل هذا من وراء هذه التركة..!

- ورفضتِ طبعاً..!..علا.. أما زلت تنتظرين ابن عمتك..؟

Scanned by CamScanner

قالت بأسى..من؟..حسّان..؟ وما الفائدة من انتظاره إن لم أكن أعلم متى سيعود.. ومع من..؟ وما أدراني أن يرجع يوماً وقد تأبّط ذراع زوجة أجنبية..!!

- لكنك لم تصارحيه قبل سفره.. أو حتى تلمّحي له..!

- .. الصّبّ تفضحه عيونه..! ثم أردفت.. إن كان سيرجع كما ذكرت فلن أندم على كتماني.. وإن كان القدر سيجمعني به فهو لا ينتظر مصارحتي، ما الذي ذكّرك به الآن..؟ لقد تأخر الدكتور، يبدو أنه لن يأتي اليوم، أخبريني.. هل شاهدت علاء..؟ إنه هنا..! قلت باعتزاز.. طبعاً..!

- وماذا كان يريد منك قيس المتيّم..؟

- لقد عرض عليّ أن أجلس بجانبه في القاعة.

وضعت يديها على خاصريها وهي تقول: ماذا..؟ هل ابتدأنا..؟ يريد من الآن أن يأخذك مني..؟ أنا الملامة لأنني وافقت عليه!

- نعم..؟ ومن قال: إنني أنتظر موافقتك؟ ولتزدادي غيرة منه فهو يريد رؤيتي بعد المحاضرة.

- صحيح أمل.. أيّ سيارة ستختارين من بين سياراته..؟

وضعتُ رجلاً على أخرى ورفعت منكبيّ وشمخت برأسي قائلة.. وا لله.. أعتقد أنني سأختارها كلّها..!

Scanned by CamScanner

- ألا تعطيني واحدة منها..؟ أنا صديقتك المقرّبة...!

- لا تخافي يا صغيرتي، سأبحث لك في المستودع عن إحدى سيارات المرسيدس لديّ قبل أن تتحوّل إلى قطع غيار، ولن أنسى أن أهبك إحدى مزارعي الخاصة كصدقة لك في شهر رمضان الذي سيهلّ قريباً..!!

راحت تمسك بيديّ وتقول بتمثيل ناجح.. شكراً لك يا سيدتي، أكثر الله من أمثالك، أطال الله في عمرك..!!

.. كان يحمل فوق كتبه كيساً صغيراً، قال لي.. عندي لك مفاجأة..!

- مفاجأة..! ما هي..؟

ناولني الكيس قائلاً بنظرات ساحرة.. مجموعة مستحضرات تجميل تليق بك.

انتشيت دلعاً وأنا آخذها منه، فقال بخبث.. هل تستعملينها غداً..؟

فهمت قصده فقلت مطرقة الرأس بابتسامة.. في المنزل نعم وخارجه لا..!

نظر إليّ بأسى وهو يقول.. ولكني أريد أن..

Scanned by CamScanner

قاطعته بسرعة.. ليس قبل أن يكون هناك رباط شرعي بيننا، وإن شئت أعدتها إليك .

- لا ..لا.. دعيها بحوزتك، أمري لله..!

كانت علا تنتظرني حينما جئت وابتسامة كبرى على وجهي، سألتني بدهشة.. ما الذي معك..؟

تمايلت عليها وأنا أقول.. أصفر وأحمر وأخضر.. كل ألوان مساحيق التجميل من عند خبير الجمال علاء المحترم..!

- ويحك..! وأخذتها منه..!

- ماذا كنت سأفعل..؟.. خفت أن يزعل..!

- لا بد أن خللاً أصاب عقلك، لم تعودي أمل التي أعرف، لقد طاش صوابك حقاً و لم تعودي تعي ما تفعلين.

لم تكن كلماتها إلا كطرقٍ خفيف على غشاوة كتيمة أسدلت على عينيّ كل الستائر وبهرتني بأشعة الحب، في المرة التالية طلب مني ثانية أن نتناول الغداء في أحد المطاعم، رفضت بدلع وكررت جملتي التي اعتادها.. ليس قبل أن يكون هناك رابط شرعيّ بيننا، كنت أظن أنني بكلماتي أحفّزه لهذا الرباط الشرعي، لكنه قال بتذمر:

- رابط شرعي.. رابط شرعي.. أليس على لسانك سوى هذه الكلمة..؟

Scanned by CamScanner

قلت له بهدوء.. يا علاء. مهما كان هناك مشاعر، لا يتوّجها إلا رباط مقدّس يباركه الله تعالى، وسوى ذلك يبقى هناك حدود والتزامات لا ينبغي علينا تجاوزها، وإن عذري الوحيد في علاقتي بك هي هذا الرابط الشرعي الذي أنتظره، ثم إن التزامي يجب أن يسعدك بي لا أن يجعلك تتذمر..!

- صحيح.. ولكن.. إلى هذا الحد..؟.. أنت متزمتة..!

- بل وأكثر.. ليس تزمتاً بل حفاظاً، لقد فاتحت أمي بالأمر ونصحتني ويجب أن أكون موضعاً لنصحها وثقتها.

- فاتحت أمك..! لَمَ العجلة..؟ لم يحصل شيء بعد..!

- ستعرف آجلاً أم عاجلاً، أراك مازلت متردداً في مفاتحة أهلك بالموضوع، وكأن كل هذه المدة لم تصنع بها شيء.

- غير صحيح، أنا أحاول كل فترة أن أحدّث والدتي عنك، لكن أن أفتح الموضوع الآن وفي هذه الفترة من الامتحانات فهذا أمر صعب.

- بل أنا لا أرضى في هذا الوقت، لا أريد أن نشغل عن دراستنا، كيف دراستك..؟

- لا بأس..!

- وعدتني بمجهود أكبر..!

Scanned by CamScanner

- ما زلت أحاول.

- أتعلم أنني أدعو الله لك ليل نهار..! أتأمل نجاحك أكثر من نجاحي.

ولا أدري لِمَ غارت عيناه في الأرض وهو يقول لي:.. أنت فتاة طيبة القلب..!

Scanned by CamScanner

-٩-

جاء شهر رمضان الكريم بنفحاته الإيمانية الرائعة، كان قدومه متوافقاً مع عطلة التحضير للامتحانات، امتلأ وقتي بالجدّ والطاعة، أصحو عند التهجدّ في غسق الدجى.. المآذن كلّها تسبّح بحمد الله الأعظم.. أصوات المنشدين تتضرّع بشجن يدمع العين ويخشع له القلب.. كل شيء يسبّح بحمد الله.. حتى السماء رغم ظلمتها الحالكة فيها صفاء نور لايراه إلا من عشعش في قلبه نور الإيمان وحب الرحمن، وبعد السحور وصلاة الفجر أقرأ ما تيّيسر لي من القرآن الكريم بما يشرح الصدر ويقوّي العزيمة، لقد علّمتني جدتي رحمها الله أن أختمه خلال شهر رمضان المبارك، ثم أمضي وقتي بعد سويعات نوم بالدراسة حتى يقترب موعد الإفطار.. المطابخ في كل بيت تعجّ بالفوضى.. والنسوة يسارعن في إعداد الطعام قبل أن يضرب المدفع.. والأبنية تنقل أصوات قرقعة الصحون عبر الأثير في طرافة ولذّة.

وعندما يضرب المدفع معلناً آذان المغرب يكون الكل مجتمعاً حول مائدة الإفطار وهي ممتلئة بما لذّ وطاب من الأطعمة، إنه أوّل رمضان يمر بي دون جدتي، وهذا ما دفعني في الأيام الأولى أن أبكيها بحرقة.. عند السحور أذكرها وهي توقظني والمائدة أمامي

Scanned by CamScanner

جاهزة.. وقبيل الإفطار تهرول معي بيديها ورجليها.. وعلى مائدة الطعام تأكل بترو وهدوء وهناءة.. وعند صلاة التراويح يتعب جسدها من الوقوف فتتابع صلاتها وهي جالسة على الكرسيّ.. كان صعباً عليّ أن تمرّ بي كل هذه المواقف ولا أذكرها.

كان أبي يحاول جاهداً أن يخرجني من متاهة ذكراها، ويختلق جواً من الفكاهة، وأحياناً يربت على كتفي ويواسيني ببضع كلمات، حاولت التأقلم مع وضعي الجديد ومسح عَبَرات الليالي.. ولكن.. طالما منيت نفسي لو أن مائدة الإفطار هذه جمعتني يوماً بأسرتي الحقيقية..! غير أني أمنيها الآن أن تجمعني يوماً بعلاء تحت سقف واحد في بيت جميل يشعّ منه الحب والإيمان.

حاولت أن أتوسّم خيراً في أن يبذل علاء الآن مجهوداً مضاعفاً سواء في الطاعة أو في الدراسة ، لقد كانت همته في الآونة الأخيرة فاترة لا تعبر عن عزيمته التي كانت فيه خلال لقاءاتنا الأولى، وحاولت أن أرسخ حبي له في دراستي وتفوّقي، كان عليّ أن أقطع شوطاً في الدراسة مهما كان يسيراً تحسباً لما قد يجري معي فيما بعد من أحداث، تمنيت لو أملك كرة زجاجية كالتي عند الساحرات لتصف لي ما يفعل كل توّ وكل لحظة .. كم ساعة يدرس..؟.. متى ينام..؟.. كيف شهيّته للأكل..؟ .. هل

Scanned by CamScanner

هو متعب..؟.. هل هو ضجر...؟ هل يفكر بي..؟ هل هو مثلي مشتاق..؟ ولأنني عاجزة عن امتلاك هذه الكرة فقد أوكلت إلى الله تعالى أمر تولّي علاء وتوفيقه، صحيح أنه أعطاني رقم هاتفه تحسباً إلا أنني لم أفكر يوماً في الاتصال به، بل إنني لا أملك الجرأة على فعل ذلك قط، لم يكن أمامي سوى الدعاء له بكل خير وصلاح وكل توفيق.. آناء الليل وأطراف النهار.. عند كل صلاة.. وفي كل سجود.. وعبر كل دعاء وابتهال.. وكنت أذرف الدمع سخياً كلما تخيلته خارجاً من أحد المساجد..!

.. في اليوم الأول من الامتحانات كان اضطرام أشواقي يفوق رهبة الامتحان، وكنت قد أعددت الفقرات الهامة من كل محاضرة للمادة التالية، لأعطي كل من علا وعلاء نسخة منها، .. كم كانت خيبة أملي كبيرة حين لم أره بين المتقدمين للامتحان، زاغ بصري وأنا أبحث عنه مع علا دون جدوى، شغل بالي عليه كثيراً وحاولت علا أن تطيّب خاطري قدر ما استطاعت، ذهبتُ إلى المنزل وأنا أجاهد ألا أكترث بالأمر وأن أتفرّغ للمادة التالية، لكن ناراً ملتهبة راحت تتأجج في أحشائي وكل خوفي أن يكون مكروهاً قد أصابه، لم أجد نفسي إلا وأنا أتصل به إلى المنزل لأوّل مرة وبيد مرتجفة، ردّت عليّ امرأة غالب الظن أنها أمّه، فقلت بخجل - علاء موجود..؟

Scanned by CamScanner

- أأمل..!

نادته وكأن الأمر لديهم أكثر من عـادي.. عـلاء.. أمـل على الهاتف..!

ما إن سمعت صوته حتى هـدأت أعصـابي وكـأن أحـداً صـبّ على أحشائي ماءً بارداً، سألته بهلع:

- لِمَ لم تأتِ اليوم..؟

- .. والله مريض..

- خيراً..!

- لا تقلقي.. وعكة صحية.

- لقد انشغل بالي عليك كثـيراً، أجبـت عـن أسـئلة الامتحـان بصعوبة فقد كان ذهني مشتتاً.

- لا تقلقي عليّ، اهتمي أنت بدراستك.

- كنت سأعطيك فقرات هامة عن المادة التالية.. يا للخسارة.

- هل ألتقي بك اليوم..؟.. أراك قرب منزلك..؟

- لا.. لا.. لا أستطيع.. علـى كـل.. اهتـم جيـداً بصحتـك، أريد أن أراك في المادة القادمة يوم الثلاثاء، ادرس جيداً.. صحتـك ودراستك مهمتان لي.

Scanned by CamScanner

- شكراً لك..!

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

تنفّست الصعداء وحمدت الله أن الأمر لم يتعد الوعكة، كما أنه أراد تقديم الامتحان لكن المرض منعه.. شفاه الله من كل داء وابتلاء وأغدق عليه من فيض كرمه ورحمته، لكن .. لم يكن حديثه معي على الهاتف بالرقة ذاتها التي اعتدتها منه.. يبدو أن أحداً كان مجاوره فلم يستطع أخذ راحته في الحديث معي..!

قدّمت بقية مواد الامتحان متوترة الأعصاب مشوشة الذهن.. تارة يقدّم بشكل ضعيف .. وتارة يتغيّب لأنه لم يحضّر للامتحان جيداً.. وتارة لأنه استيقظ متأخراً، وغير ذلك من الذرائع الواهية التي تعبر عن إهمال فظيع..! وفي آخر مادة قدّمناها وقفت عن بعد حتى شاهدني وقد كان مع مجموعة من الطلبة والطالبات السخيفات، جاء إليّ وقال..

- أهلاً أمل.. كيف حالك..؟ ثم نظر إليّ نظراته الآسرة وقال.. اشتقت إليك..!

أطرقت رأسي وقلت. أنا زعلانة منك.. زعلانة كثيراً جداً جداً..

- أف..أف..أف.. ما الخطب...؟

Scanned by CamScanner

- لنا قرابة الشهرين وإلى الآن لم أرَ منك تنفيذاً لأيّ شيء مما وعدتني به، لا الخطبة ولا الدراسة ولا الالتزام.. ولا أيّ شيء..؟

أخذ نفساً ثم راح يعدّ على أصابعه ويقول.. بالنسبة للخطبة فوالدي الآن مسافر ولن يعود قبل أسبوعين.. يعني تقريباً مع بداية الفصل الثاني، أما الدراسة فقد وعدتك بالمحاولة .. وأنا أحاول، ولكنني لا أريد منك أن تجعليها فصلاً بيننا فعلاقتنا بعيدة عن أيّ شرط، وإلتزام.. فقد اتفقنا منذ البداية ألا يضغط أحدنا على الآخر، وأما أيّ شيء فهذه لم نتفق عليها بعد..!

ابتسمت وقلت.. أحاول الاقتناع بكل ما قلت لكن الأسبوعين هما المهلة الأخيرة لك، وإن تأخرت بعدهما يوماً واحداً فسأحكم عليك بالإعدام..!

- وهل يطاوعك قلبك..؟

- لكنني سأعدم نفسي من بعدك..!

حدّج في وجهي وهو يقول: ونموت شهيدي الحب..؟!.. مثل روميو وجوليت..!

أطرقت خجلة وعاد يسألني.. هل أستطيع اللقاء بك خلال العطلة كي أهنئك بالعيد؟

- ما دمت تعرف جوابي مسبقاً فلا تسألني.

Scanned by CamScanner

- ولا حتى اتصال..؟

- ولا حتى اتصال..

- حرامٌ عليك..!!

- حرام عليك أنت.. انتبه لنفسك جيداً.. وحذار من البرد الشديد.. ولا تطل السهر.. وكل عام وأنت بخير مقدّماً بمناسبة عيد الفطر.. و.. وإلى اللقاء..!..

لقد اشتقت إليه من قبل أن نفترق فكيف أمضي الأسبوعين دون سماع صوته..

• الصراع داخلي يكبَر.. ونبضات قلبي أتعبتني.. وصراخ عقلي أوجعني.. وأنا بت بين كل ذلك أشلاء في شتات.

كانت علا تنتظرني في حديقة الكلية حيث جلسنا نثرثر قليلاً ثم قالت.. ها قد جاء غيث .. وقف مرحباً. سألته علا.. طمئني.. كيف كان امتحانك.. لقد كنت خائفاً من هذه المادة..!؟

قال وهو يحكّ جبينه.. لابأس.. أتمنى ألا تُحمل إلى الفصل الثاني.. لا أستطيع التكهنّ..! وقفت شلّة من الزميلات على بعد وأشرن إلى علا فقالت على عجل.. انتظرا.. سأعود إليكما..! ارتبك غيث كثيراً في حين التزمت الصمت.. وبعد جهاد طويل

Scanned by CamScanner

قال.. كيف.. كيف قدمت امتحاناتك..؟ فقلت باطمئنان.. جيدة إن شاء الله، وإن لم تكن بقدر المجهود الذي بذلته.

- وهل تأقلمت مع أسرتك..؟

ابتسمت وقلت.. شيء لا بدّ منه.. ولا مفرّ منه.. حياتي كلّها تأقلم بتأقلم..!

وانحدرت من شفتيه كلمة فقال.. ما رأيك.. ثم خيم الصمت..

سألت مستغربة.. رأيّ بماذا..؟

راح يصلّح وضعية نظارته وهو يقول.. لا شيء.. أعتقد أن الوقت غير مناسب.

ثم جاءت علا.. طول الوقت وأنت تشكوني لأمل.. أعرفك.. ثرثار..!

قال وهو يضحك مستهزئاً.. جداً.. لدرجة أن الكلام بدأ يهرب مني فعلاً..!.. هل تعودين معي إلى المنزل..؟

- لا اسبقني أنت.. أريد أن أودّع أمل.

حيّانا مبتسماً ومضى فسألت علا.. ما قصة أخيك اليوم..؟.. إنه مرتبك..!

Scanned by CamScanner

فقالت فوراً.. فقط عندما تكونين موجودة، إنه شعلة من الذكاء والفطنة لكنها سرعان ما تنطفئ بوجودك ويغدو مثالاً للبلاهة..!

ثم صمتت لحظة وقالت..أمل.. إن صارحتك ألا تزعلين..؟.. ألا تلاحظين أنك في الآونة الأخيرة بت تلهثين وراء علاء بعد أن كان هو من يهرول إليك..؟

تنهّدت بحسرة وقلت.. ألاحظ.. وأوهم نفسي أنني لا ألاحظ.

- ولِمَ كل هذا...؟

- خشية أن أصحو من الحلم.. أرغم نفسي على الغيبوبة عن كل ما ألاحظ والاكتفاء بالحلم.

- لكنه حلم مهما طال..!

- سيظلّ حلماً إلى أن يتحوّل إلى حقيقة..

- وإن لم يتحوّل ..؟؟

تطلّعت إلى السماء بألم وقلت.. هذا هو الشيء الوحيد الذي أرفض مجرّد تصوّره.. علا.. أنت لا تتخيّلين مدى السعادة التي عشتها بصحبته.. إنه الفرحة الوحيدة التي أحسست بها بعد وفاة جدتي، رحمها الله، لأول مرة أشعر أن كل شيء في الحياة جميل، حتى القبح بات له عندي سمة من سمات الجمال، السماء..

Scanned by CamScanner

الأرض.. الطيور.. المطر.. كل شيء.. كل شيء غنى لي ياعلا.. شعرت أنني سندريلا التي جاءت ساحرة فجأة وحوّلتها من خادمة كوخ حقيرة إلى أميرة قصر فاتنة الجمال.. وحوّلت يقطينتها إلى عربة ذهبية مرصّعة بالنجوم.. علا.. لقد أخلصت له كل إخلاص، وتفانيت في حبه أيّما تفانٍ، تنازلت عن سيئاته العديدة مقابل حبه لي.. لابد أنه يحبني.. بغضّ النظر عن كلماته ومحاولاته التقرّب مني. نظراته.. نظراته سكرى بالحب لي حتى الجنون.. لغة العيون لا تكذب.. هل يعقل أن يتنازل عن حبي له..؟.. مهما شاهد فتيات وتعرّف على أخريات.. اجمعي مشاعرهنّ جميعاً لن تعادل ذرة من وفائي له.

قالت بتنهد.. ليته يسمع كل هذا ويعيه..!

- وليتني أقدر أن أبوح به له.. لكن الفتاة منا تضيّق الخناق على مشاعرها بدافع من حيائها فلا يظهر من فيضها إلا غيض بسيط، ثم ترقرقت الدموع في عينيّ وأنا أقول.. مازال لديّ بارقة أمل.. مازلت أتشبّث بأخر خيط من خيوط الأمل لديّ.. فسحة الأمل هذه هي التي تعطيني الروح لأعيش، سأنتظر بداية الفصل الثاني.. سأنتظرها بفارغ الصبر.. سأمضي العطلة بكل ما يجعلها أسرع من البرق، سأعمد إلى الترويح عن نفسي في العيد، وسأحاول توقّع كل شيء.. كل شيء..

Scanned by CamScanner

ـ كان هذا التوقع يتطلّب مني الضغط كل الضغط على أعصابي ومشاعري ونسف أحلام يقظتي .. ولطالما صدع في خيالي شعور النقص فزادني كآبة وخوفاً.. ولأهرب من كآبتي كنت أبحث عن كآبة الآخرين، لعلي أجد في آلامهم عزاءً لآلامي..

وقد شاهدت مرة طفلة صغيرة وأنا ماشية على قارعة الطريق.. لا يتجاوز عمرها السابعة.. رثة الثياب.. منكوشة الضفيرتين.. وعلى وجهها علامات بؤس قاتم، كانت تمسك علبة صغيرة بيديها اللتين أثر البرد القارس على بشرتهما فخشنتا واحمرّتا، تحاول أن تعبر الشارع بخوف وهلع.. تخطو خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء، حتى اقتربت منها وهي على هذه الحال، أشفقت عليها، أمسكت يدها الصغيرة المثلّجة بهدوء وصمت، تطلّعت إليّ باستغراب وألفة في آن واحد معاً فابتسمت لها وعبرنا الشارع، سألتها عمّا بيدها فقالت: إنه دواء لأمها المريضة.. ثياب رثّة.. وأم مريضة.. وطفلة صغيرة تحضر الدواء، لابد أن الوضع صعب للغاية.. شعرت بقدميّ تحاكيان قدميها، ويدي قد ارتاحت ليدها.. كان هناك دافع قوي يدفعني إلى مرافقتها لم أدرِ ما هو .. أهو الفضول.. أم هو الشفقة.. أم هو سر خفيّ تحتفظ به إنسانيتي وتأبى البوح به.. تابعت معها الطريق إلى منزلها وهي في غاية

Scanned by CamScanner

السرور والاطمئنان، وقد اكتفيت بما رأيت من بشائر انبساطها لتنسيني مشواري الأساسي، أدخلتني في أزقّة تضيق رويداً رويداً حتى وصلت إلى منعطف صغير يضمّ أربعة بيوت.. بل أربعة أكواخ، طرقت الصغيرة الباب الحديدي بيدها بقوة، ثم راحت ترفسه بقدمها إذ لم يكن هناك جرس يُقرع، سمعت أصوات صبية صغار يهرولون إلى الباب ثم فتحه أحدهم بصعوبة، تسمّر الكلّ ينظر إليّ .. لم يكن حالهم بأفضل من حال أختهم التي تكبرهم، ركضت إلى أمها.. أمي.. فتاة حسناء تريد رؤيتك.. سبق سعالها صوتها وهي ترحب، كنت ما أزال أمام باب الكوخ أتأمل جدرانه البسيطة وقدلاح لي عن بعد ستار تحت درج مؤدٍ إلى السطح، اقتربت منه .. لم يكن باباً.. بل ستاراً من قماش متسخ لدورة مياه لا تتسع لرجل ذي كرش، وبجانبه غرفة صغيرة جعلت مطبخاً وحماماً في آن واحد.. مدفأة وجرن حجريّ ومغسلة للجلي عليها بعض الصحون المتسخة هي كل ما في هذا المطبخ، انقبض صدري، وكأنني لا أصدق ما أرى وتثّلجت أوصالي من رهبة المكان..نادتني الطفلة لأدخل الغرفة فدخلت، أول ما ساءني من الغرفة هو ذاك الزفير الذي ربما لم يخرج منها منذ يومين، فالباب مغلق دوماً اتقاء للبرد، جلست على الأرض وصافحت السيدة الأم وهي مستلقية على فراشها وجهها شاحب كلون الليمون.. عيناها غائرتان وشفاهها مشققة.. شعرها مهدّل

Scanned by CamScanner

ومتعب، لكنها رغم ذلك استطاعت ببراعة أن توحي لي بسعادتها بمجيئي بعد أن قدمتني طفلتها إليها.

- أرجو ألا أكون قد ضايقتك بزيارتي..!

- لا أبداً.. على الرحب والسعة.. وأسفي.. لا بد أنك صائمة، وددت لو احتفيت بك وإن كانت الحال لا تليق بك.. يا خجلي منك.. البيت متواضع والأطفال أشقياء لا يتركون شيئاً في موضعه.. سعاد.. رتبي الغرفة حالاً.. إنها ساعدي الأيمن.. لقد أعانني الله بها على مرضي..!

- مم تشكين يا خالة..؟

- إنه الربو.. لقد هدّ أعصابي، في كل سعلة أشعر أن روحي تخرج وأنفاسي تتحشرج .

- عافاك الله!.. وأين زوجك..؟

ترقرقت الدمعة في عينيها وهي تقول.. أعطاك عمره منذ سنة.. توفي بحادث سيارة، وترك لي خمسة من الأطفال أصغرهم في الثانية الآن من عمره، وأكبرهم في العاشرة من عمره، إنه الآن في عمله.

- وماذا يعمل وهو في العاشرة..؟

- إنه يلمعّ أحذية المارّة.

سألت بأسى.. أيّ دخل يدرّه عليكم تلميع الأحذية..؟!

Scanned by CamScanner

قالت ببساطة: يأتيني كل يوم بمعدّل خمسين ليرة وفي شهر رمضان الكريم والأعياد المباركة يصل مردوده إلى مئة ليرة عن طريق المِنَح والصدقات.. نعمة كريم، راحت تسعل بحدّة حتى احمرّ وجهها ودمعت عيناها ثم تابعت متعبة..

أولاد الحلال أصدقاء زوجي المرحوم قد سعوا للتذرّع أن وفاته كانت إصابة عمل، وتدخّلوا لدى مدير المعمل الذي كان يعمل فيه حتى قضى لي براتب شهريّ قدره ألف وخمس مئة ليرة.. الحمد لله تعالى.. لولا ذلك لمتنا من الجوع.

تنهّدت طويلاً وأنا أكاد لا أصدق ما أسمع وما أرى.. حتى الغرفة الوحيدة التي يقطنونها خاوية إلا من خزانة ومجموعة فرش وكرسيين ومدفأة صغيرة كل دقيقة قطرة من الوقود على أنها مشتعلة، والأرض تحتهم تغطيها سجادة مهترئة تناثر عليها فتات من الخبز.

بدأ الأطفال يلعبون بمحفظتي وأمهم تزجرهم، ابتسمت وفتحت المحفظة وناولت كلاً منهم قطعة من السكر، فلمعت أعينهم من الفرحة، وسرعان ما راحت أضراسهم تكسر السكاكر وتطحنها بنهم، والأم تنظر إليهم بارتياح.. أثناء ذلك دسست مبلغاً يسيراً من المال - لم أكن أملك غيره - تحت فراشها دون أن تلحظني ثم نهضت من مجلسي وقد اكتفيت بهذه المشاهد البائسة،

Scanned by CamScanner

خرجت من كوخهم والشمس شارفت على المغيب، ودّعني الكل بحب وشوق للقاء جديد، أما أنا فقد قبّلت الجميع ومسحت على رؤوس اليتامى بيدي، وقلبي يعتصر ألماً لفاقتهم.. وما إن غادرت المكان حتى تذكرت علاء وأسرته التي تسكن قصراً فخماً كما قال لي.. وجدت المفارقة رهيبة تفصم العقل.

أحدهم يحار في نوع ولون السيارة الجديدة التي سيستبدلها في الشهر التالي، والآخر لايكاد يوفّر ثمن علبة الدواء، أيقبض هؤلاء ليبسط أولئك..!

أبؤس هؤلاء بذخ لأولئك..!!.. هل يطاوع أحدهم قلبه أن يأكل من مائدة تحمل شتى الأصناف من الأطعمة، ويرمي الفائض في القمامة وهناك من يتضوَّر بؤساً وجوعاً؟! أيّ رحمة أنزلتموها ببعضكم أيّها البشر..؟!

.. تطلبون من الله الرحمة وأنتم لاترحمون..! تطلبون منه العطاء والكرم وأنتم لاتعطون..!..

آه ياعلاء..لو أنك تفكّرت في تبذيرك للمال لحظة..!

.. لو أستطيع أن آخذ بيدك إلى كل زريبة من هذه الزرائب لترى بأمّ عينك ما لايرضاه دين ولا يستسيغه عقل..!.. ناس في العراء.. وآخرون في بروج مشيّدة..!.. والله ماجاع هؤلاء إلا من تخمة أولئك! كان أول ما تبادر إلى ذهني هو أن أذهب

Scanned by CamScanner

إلى إحدى الجمعيّات الخيريّة في اليوم التالي، حيث أدلّهم على هـذا الجانب المظلم من الحـيّ عمومـاً، وكـوخ الأرملـة بشـكل خـاص ليمدُّوها بالعون والمساعدة خاصة في هذه الأيام الفضيلة، ولاأسأل الله تعالى من ذلك إلاّ الأجر والثواب..!

Scanned by CamScanner

-١٠-

.. ليست السماء بحال أفضل من حالي.. غيوم مدلهمّة.. ضباب يحجب الرؤية.. هواء بارد يلطم الوجوه.. كان جواً كئيباً وكأنه ينذر بحصول كارثة، وكان الأجدر بنا جميعاً أن نلزم بيوتنا وننعم بمدافئها فقد كنت وعلا من القلة القليلة التي داومت في أول أيام الفصل الدراسي الثاني.. قالت بضيق.. ليتني لم أسمع كلامك وآت معك، لن يكون هناك دوام فعلي قبل أسبوع على الأقل..!

- تعلمين أنني لم آتِ من أجل الدوام.. أريد أن أرى علاء بأسرع وقت.

- اشتقتِ إليه..؟

تلعثمت وقلت: ليس ذلك فقط، أريد أن أرتاح من الصراع الذي يقلقني طول العطلة وأنا أتخبّط في بحر من الشكوك.. لقد حاولت جاهدة ألا أفكر بالأمر لكني فشلت مراراً، كلما استنبط عقلي ريبة في علاء راح قلبي يجد له ألف حجة وعذر.. لو تعلمين كيف أمضيت عيد الفطر.. الكل في فرح ولهو.. انتعاش وابتهاج. اجتماع وثرثرة.. وأنا أسعى كل السعي لأفلح في رسم ابتسامة على شفتي تخفي قليلاً تعاسة عينيّ، وألم قلبي، وفي الليل.. أدلف إلى مخدعي والدموع على وجهي مدرارة.. كم من الصعب أن

Scanned by CamScanner

تشعري بالضياع.. بالحيرة.. بالقلق.. بالخوف من الآتي.. بالضيق من كل ما هو لك..!.. كم هو صعب أن تدركي أن شيئاً في الدنيا لن يبهجك إلا نجمة تعلّقين عليها كل آمالك، لكنها تخبو شيئاً فشيئاً حتى تأفل..آه.. لقد تعبت يا علا.. تعبت..! سوف آتي إلى هنا كل يوم حتى ألقاه، لن أسأم أبداً..!

.. مر يومان.. ثلاثة.. ستة.. عشرة.. والغائب عن الأنظار مازال غائباً، كاد عقلي يجنّ باءت كل محاولات علا لتهدئتي بالإخفاق، أردت أن أتصل به لكنها حذّرتني مراراً واضطرّت أحياناً لزجري كي أرتدع عن اللهاث وراءه أكثر من ذلك.. وكدواء ناجع لروحي السقيمة اقترحت اقتراحاً معقولاً جداً.. أن نسأل صديقه المقرّب عنه، ونفهم منه سبب تغيّبه.. لعلّي ألقى عنده الخبر اليقين..!

كان صديقه هذا واقفاً مع طالبتين بمجموعة مترفة، يجأر كل تارة بضحكة فظيعة، لم يكن بأفضل مما ذيع عن علاء.. ترف وإهمال.. لهو وعبث.. استأذناه ووقفنا نحن الثلاثة جانباً وقد عمد فجأة إلى سلخ جلده من الشاب الضائع إلى الشاب المهذّب اللبق.

أيّة خدمة..!

ولأن علا تملك جرأة أكثر مني فقد تسلّمت زمام الحديث، وأنا اكتفيت بمحاولة ضبط انفعالاتي وسماع كل ما دار بينهما

Scanned by CamScanner

برأس مطرق وقلب واجف.. حتى أنني شعرت بالأرض ترتجف من تحتي..

- نريد أن نسألك عن علاء.. لقد طال غيابه عن الكلية.

- إنه في رحلة مع شلّة من أصدقائه إلى مصر.. قد لا يعود قبل شهر.. لا أدري.. لعلّه يعود قبل ذلك..!!

- رحلة..؟.. وشهر..؟.. ولكن..!

- أما زلتما تنتظران أن يفي بوعده.. إنه يخطب ثلاثة فتيات في يوم واحد، ويتزوج غيرهنّ في اليوم التالي..!

نظرت إليه فاغرة الفاه فتطلّع إليّ وقال: أنا أعلم كل شيء.. لم يكن يخفي عني شيئاً من قصتكما.. أنا آسف.. سأكون صريحاً معك رغم أنه لا مصلحة لي في ذلك غير أني أشفق على رزانتك والتزامك.. ويهمني جداً ألا يعلم علاء بحديثنا هذا فعلاقتي معه بمعزل عن إسداء هذه الخدمة إليكما..!

وبجفاف حلق سألنا نحن الاثنتين..لن يعلم.. ما الأمر..؟.. تكلّم.

- لقد.. لقد كنت ضحيّة تحدٍّ بيننا.

ابتلعت ريقي وجحظت عيناي وبصوت غائر من الأعماق قلت.. ماذا تهذي..؟.. أيّ تحدٍّ؟!

Scanned by CamScanner

- القصة من البداية أننا كنا نراكما دائماً من بين الطالبات المحافظات وعندما سافرت علا إلى القرية كنت تروحين وتغدين إلى الكلية وحيدة، اختلاطاتك بالطالبات قليلة.. وبالطلاب شبه معدومة، فراح يقول لي بزهوّ: حتى هذه أستطيع الإيقاع بها..! قلت له: لن تقدر.. وتراهنّا على وليمة عشاء فاخرة، في البداية حاول معك بشكل بسيط ليدرس صنفك وعندما رأى أنك لست لقمة سهلة لجأ إلى وكر الخطبة لتأمني له، وعمد من خلال ذلك إلى استجرارك لكنه فجأة قال لي وقت الامتحانات.. لقد صعبت عليّ هذه الفتاة.. إنها ساذجة وطيبة القلب ولا تفكّر بي إلا كزوج للغد.. لقد تنازلت عن الرهان..!

شحب لوني وتيبست شفتاي.. راح جسمي يرتعد وقدماي تقصفان هلعاً.. قلت له بيد مرتجفة: وتركني شفقة..!.. ألم.. ألم يدعك إلى وليمة العشاء..؟؟..هل.. هل كان الطعام لذيذاً يستحق هذا.. الرهان..؟؟؟

أمسكت بي علا وهي تنظر إليه وشرر الغضب يتطاير من عينيها.. قل لصاحبك الأرعن هذا: إن مشاعر الناس ليست لقمة يلوكها ويلتمّظ بها ثمّ يلفظها وقت يشاء، وليكن في معلومك أنت أيضاً أنه ما تركها شفقة كما لفق لك وترفّع، لكنه أيقن أنه لن يستطيع أن يصل معها إلى شيء مهما حاول.. وقسماً.. قمساً له عندي واحدة..!!

Scanned by CamScanner

أخذت بيدي وراحت تهدّئ من روعي وقالت لي: تعالي نذهب إلى منزلي، من غير المعقول أن يراك أهلك بهذه الحالة..!

فقلت بصوت لا يكاد يسمع: لا أريد أن أرى أحداً.. دعينا نذهب إلى بيت جدتي.

دخلنا البيت بصمت كصمت القبور.. لقد بدأ فراغه الآدمي يلفّه بوحشة ورهبة، كنت حتى هذه اللحظة جامدة الأطراف وكأن الدم تجلّط في عروقي.. جافة العينين والحلق.. كان وجهي شاحباً كمن رأى شبحاً في ظلمة دجى، وما إن جلست على الأريكة حتى تدفّق شلال دموعي دون توقف.. رحت أبكي وأبكي وأبكي، أما علا.. فقد لجم لسانها.. هل تواسيني لمصابي.. أم تفرغ جام غضبها عليّ..؟..كان وقع الصدمة كبيراً عليها.. فكيف عليّ أنا..؟ كنت أنفض رأسي كل تارة كمن رأى فاجعة ثم أقول: غير معقول.. غير معقول.. نظرت إليها وقلت: هل أنا غبية إلى هذا الحد..؟

قالت علا بهدوء: لست غبية.. لكنك فعلاً طيبة القلب وساذجة.

نظرت إليها والدموع تملأ وجهي.. ومتى كانت الطيبة عيباً..؟

- منذ أن تخلّى البشر عن الفضيلة.. منذ أن بدأ الانحلال الخلقي يتسرّب إلى كل فرد فينا، منذ أن بدأ الناس يمكرون

Scanned by CamScanner

ويضمرون، يضغنون ويحقدون.. وبتنا نحن الثلة القليلة التي لم تشرب من نهر الجنون فوصفت بالجنون..!

تحشرجت أنفاسي وأنا أقول.. لا أصدق.. لا أصدق..!

قالت بهدوء وحزم.. بل صدقي.. هذا هو الحلم الذي مكثت بين طياته ليل نهار تنتظرين تحقيقه.. هذا هو جرس الإنذار الذي طالما قرع أمامك لينبهك وأنت عنه معرضة.

وبصوت مبحوح قلت.. علا.. إنه يحبني.. نظراته..

قاطعتني وقد انفجر صمام حلمها.. كفي عن تكرار هذه الكلمة.. لم يكن بنظراته يحبك.. بل كان بنظراته يشتهيك.

خبأت وجهي بين كفّيّ ورحت أصرخ.. كفى.. كفى..

لكنها تابعت كلماتها الثاقبة.. مرة واحدة رأيت هذه النظرات منه إليك وقلت لنفسي.. كم هو جريء..!..ألم يخطر ببالك يوماً أنها نظرات خبير بالغرائز.. لن أقول بالعواطف فهذه الكلمة قد ترقيه إلى مستوى هو غير جدير به.. لم أقل لك يا أمل تغيّره المفاجئ أمر غير طبيعي..؟ ألم أقل لك أمسكي عنك عواطفك..؟ ألم أقل لك لا تكشفي له كل أوراقك.. لاتنشري أمامه حبل غسيلك..؟ ألم أقل لك لا تتسرعي في اتخاذ قراراتك..؟.. ألم أقل..؟! قاطعتها.. وماذا كنت تريديني أن أفعل..!..ماذا كنت سأفعل وهو لم يظهر لي بادئ الأمر إلا كل لطف ودمائة خلُق،

Scanned by CamScanner

ثم جاء حالاً وتقدّم خاطباً..ماذا كنت سأفعل..؟ خبيث محنّك وساذجة بسيطة.. ثعلب ماكر ونعجة بريئة..ماذا ستكون النتيجة..؟..ماذا..؟

- بريئة نعم.. لكنك لست بنعجة..قد وهبك الله عقلاً سترته غشاوة الهوى.. لو أنك لم تسمعي عنه إلا كل طيب لقلت لنفسي.. حظها التعس أوقعها في شراكة، لكن صيته ذائع في كل الجامعة بلهوه ومجونه.. فهل يعقل أن تنجي وحدك من بين براثنه..؟ هل يعقل أن يلقي أمامك أسلحته بهذه السرعة ويتحوّل فجأة إلى عنترة المتيّم بعبلة.. ووسط ظروفه وحياته المخمليّة يعلن لك الولاء والطاعة في كل ما تطلبينه منه من تقشّف في مترفات الحياة..؟؟ كان الأجدر بك أن تكتمي مشاعرك حتى بينك وبين نفسك ريثما تتأكدين من صدق نواياه.. أن تبقي على وتيرة واحدة من التعامل معه لا أن تبادليه نبضتين صادقتين بنبضة كاذبة، لو كان صادقاً لحاول رغم إعراضك عنه اللقاء بوالدك وطلبك منه حتى لو تعذَر وضعه كما يهذي..!

- وكأن كل مشاعري الفيّاضة كنت أسكبها في صحراء قاحلة سرعان ما تتبخّر من لهيب لظاها.. عالا.. لعل.. لعلّ صديقه كان كاذباً..!

- أو مازلت تختلقين المبررات..؟ ما مصلحته من كل ما تفوّه به..؟ ما الدافع ليعترف هو نفسه بتواطئه في هذه اللعبة الحقيرة

Scanned by CamScanner

سوى أن الله تعالى قد زرع فيه النخوة للحظات ليتحدّث ويضع الحقيقة نصب عينيك بعد أن كانت تلوح لك وأنت تتغاضين عنها..؟!..ثم.. هل ما قاله يتنافى مع ما سمعنا ونسمع عنه..؟.. كفاك يا أمل.. إلى متى سأظلّ أزجي لك النصائح..؟..آن لك أن تصحي من سَكرتك وتستيقظي من سباتك.. آن لك أن تري أين أوصلتك مشاعرك الهائجة.. وأين كانت ستودي بك لولا لطف الله تعالى بك.. ياه يا أمل.. لولا تربيتك الصالحة وما زرع فيك أهلك من خُلُق وورع لانجرفت وراءه وكنت رقماً جديداً يضيفه إلى قائمة ضحاياه..!

- الموت أرحم لي من هذه الصحوة.. ليتني أملك القوة لطرد روحي من هذه الحياة..!

- أمل..!

رحت أصرخ وأبكي وأضرب وجهي بكفي.. أيّ أمل. أيّ أمل..!!.. تباً لأمل.. سحقاً لأمل.. ضاع كل أمل.. مات كل أمل..!!

مسحت بيدها شعري وهي تقول بكل حنان.. إلا الأمل بالله تعالى.. أفلا نأمل أن يرحمنا..؟ أو لا نأمل أن يصلح حالنا..؟ ألا نأمل أن يحيي قلبنا يوم تموت القلوب؟.. أن ينير بصرنا وبصيرتنا بنور الحق المبين..؟ أنت مؤمنة وإيمانك بالله عميق، والله جلّ

Scanned by CamScanner

جلاله يحبك لإيمانك هذا.. الله يحبك يا أمل.. لو لم يحبك لما خلّصك من براثن هذا الوحش البشع.. لما ألهم ذاك الشريك السافل ليقول ما قال.. وأنا واثقة أنك لو لم تسمعي هذا الكلام منه لبقيت تختلقين له الأعذار ولصعب عليك الانفكاك عن حبه والعودة إلى فراغك ووحدتك.. ولتنازلت له رويداً رويداً تحت شعار الحب حتى يكون غير ما كان.. احمدي الله تعالى ليل نهار لحفظه لك وعنايته بك.. والله لكأني أرى الملائكة تحيط بك وتحمي جسدك الطاهر من لدغ هذا الثعبان، تفكرّي بكلامي لتعلمي أنك بنعمة تغبطك عليها كل ضحاياه السابقات.. ودعي ما حدث عبرة وعظة لك من الأيام.. علّها تزيد من خبرتك وخبرتي الضحلة في الحياة..!

Scanned by CamScanner

- ١١ -

.. كان يوماً مروّعاً لازمت فيه الفراش مدّعية المرض أخفي فيه عَبَرات بللت وسادتي وأنيناً مخنوقاً يكتمه الدثار.. من الصعب على المرء أن يكشف فجأة عيوبه، ومن الصعب أكثر أن يظن بنفسه شأناً وهو بين الناس محتقر يستحق الشفقة..! أضعت حيائي والتزامي حين وضعتهما بين يدي من لا يدرك قيمة لهما، أنفقت الكثير من أعصابي.. والكثير الكثير من عواطفي.. أنفقتها بذخاً.. كان قلبي عامراً بالأفراح.. فردوس أحلام وسعادة .. لوحة زاهية مزركشة كالتي يهوى تلوينها الأطفال، كنت أمشي على الأرض أثب وثباً، أسدل شعري الحريري على أكتافي وأرى فيه ستاراً يحجب أسطورة الحب الأبديّ عن أعين الحاسدين، أراقص فساتيني وكأني أراقصه.. أرتمي على السرير بكل انتعاش.. أغفو كما الأميرات.. فجأة.. تراءى لي كل ذلك سراب محال أن يتحقق... بحثت عن النور في قلبي فوجدت ظلمة حالكة مدلهمّة.. بحثت عن الحياة في روحي فوجدتها موتاً زؤاماً.. ووجدت سندريللا قد عادت إلى كوخها الحقير لكن فردة الحذاء السحري لم يمسك بها الأمير.. بل غارت في أعماق الأرض ولن يقدر أحد على إحضارها.. وستبقى سندريللا تلك الفتاة البسيطة الكئيبة.. تهوى العزلة.. وتخشى الأضواء.

Scanned by CamScanner

..حلّ الليل بسكون كان قبل ليلة شاعرياً وبات الآن كئيباً مؤلماً.. وبعد غياب طويل تراءت لي أغلى أحبائي بثياب بيضاء ناصعة، كانت المسبحة في يدها حبات من الماس المتوهّج اتقاداً ولمعاناً.. ووشاحها الأبيض مسدل على أكتافها بنور ناصع لا مثيل له.. جدتي.. أين ذهبت.. وعدتني بالزيارة وقد أطلتِ.. جدتي.. الحياة من بعدك غابة أدغال.. رحلتِ ورحلت معك كل السجايا الحميدة في قلوب الورى.. لقد تشوّهت معالم الحياة منذ تركتها. وتداعت لي كلماتها الأخيرة..أوصيك بتقوى الله.. ليكن ذكر الله دواءك عند السقم.. ليكن بكاؤك لله.. تضرّعك إلى الله.. شكواك منه وإليه.. اطلبي منه الرحمة والمغفرة.. أمل.. ليكن أملك بالله كبيراً ولا يتأسي من روحه.. وتذكري دائماً قوله جلّ وعلا..﴿ وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾.. وتلاشت رويداً رويداً صورتها وصدى صوتها يتدافع في مسمعي بكلماتها الأخيرة.. خير وأبقى.. خير وأبقى.. حتى صحوت وكأن صوتها مازال حياً في أذني. قمت بتثاقل من فراشي والكل نيام، وقفت بين يدي ربي أصلّي وأسجد.. أدعو وأتضرّع.. أتبتّل وأبكي.. أشكو وأشتكي .. أستغفر وأتوب..

..إلهي.. قد مال بي الطريق فشردت عنك.. بل أنا من مِلت لا الطريق.. أنا التي اعوججت لا الطريق.. أنا التي قصّرت لا الطريق.. إلهي.. ابتعدت عنك فما زادني بعادي إلا شوقاً إليك..

Scanned by CamScanner

أذنبت في حقك فكان ذنبي تعريفاً لي برحمتك.. جحدت بنعمك فكان جحودي مرآة لعفوك ومغفرتك.. سئمت القريب والغريب.. وحننت إليك يا رب.. يا من وحدك من يجب أن تهفو إليه القلوب.. وترنو إليه العيون.. حبك ربي في حناياي واجب أقوم به .. ورغبة حرّى أعمل بها.. حبك يا رب هو عزائي في تقصيري معك.. حبك يا رب هو كفارة عصياني وزوادة أيامي.. أيامي التي لن أرى فيها إلا إشراق شمس وغروبها.. وسطوع قمر وأفوله.

عدت إلى سريري وبقيّة أنفاسي ترتّل ما هدّأ أعصابي وطيّب خاطري.. ولم أشعر إلا وقد سكّن النوم وجعي، ولبست السكينة مضجعي فنمت وعيناي رطبتان بالدموع.. ولساني رطب بذكر الله..!

لم يكن من السهل عليّ الذهاب إلى الكلية فغبت عنها أسبوعاً.. لم يكن من السهل أن أنفض عن جناحيّ غبار التعب وأعود فأحلّق في الفضاء.. مازال جناحاي كسيرين.. ومازال قلبي موجوعاً.. ومازالت الذاكرة غنية بالمواقف التي كان استحضارها يجدد نزف الجراح ويتطلب تغيير الضماد حتى ظننت أن جرحي بدل أن يندمل سيصاب بالعطب..!

راحت علا تتردد عليّ كل يوم وتحاول أن تخرجني من قوقعة أحزاني.. تارة تمزح.. وتارة تواسي.. تارة تحكي مواقف الطلبة

Scanned by CamScanner

وقصصهم في الكلية.. وتارة تشكو لي مهاترات أخوتها حول الإرث الذي ستستلمه قريباً، وبصعوبة استطاعت إقناعي ذات يوم بالخروج من المنزل، جلسنا على مقعد في حديقة مجاورة لمنزلنا.. كانت السماء متلبّدة بالغيوم والشمس متوارية في أعماقها.. كانت أرض الحديقة قاحلة جدباء لكن رائحة المطر الذي هطل قبل سويعات تعبق المكان.. صرت أنقّل نظري بين الجوامد والأحياء وكل ظني أن كل امرئ يحمل في طيّات جسده قلب ثعبان..

- ما بك يا أمل..؟ هل اشتقت لهذه الطبيعة..؟

- لا.. لست بحاجة لاشتياق كهذا.. عزلتي عن العالم خير لي من أن أرجم بحجارة غدره.

- لو أن كل إنسان اعتكف العزلة لجرّد نازلة أصابته لضعف هذا العالم وخارت قواه، ومن ثمّ تبدد وتلاشى وضاعت حكمة الله تعالى في غياهب الظلمات.. يا أمل.. الخير والشرّ صنوان لا يجتمعان ولا يفترقان.. ضدان متغالبان.. وهما كذلك حتى نهاية الدنيا.. لا هذا يغلب ذاك ولا ذاك يغلب هذا.. حلبة مصارعة متعددة الجولات.. وإن انتصر الشرّ في جولة فسينتصر الخير في الجولة التالية.. حرام أن تلبسي جميع البشر ثياب الرذيلة، وتفريط أيضاً أن تلبسيهم جميعاً ثياب الفضيلة، فالحياة فيها الأبيض وفيها

Scanned by CamScanner

الأسود.. وعلاء صنف من هذه الأصناف لكنه لا يعبر عن كل الأجناس.

صمتت قليلاً ثم قالت.. على فكرة.. رأيته أمس.. يبدو أنه عاد من سفره.

تطلّعت إليها وقد بدأ الفضول يشدّني فتابعت حديثها بتردد خشية أن أعود بكلماتها إلى حال ما لبثت أن تركتها..

- كان يمشي بجوار فتاة وهو في غاية الانبساط.. يبدو أنها فريسة أخرى.. لكنني قمت بما يمليه عليّ ضميري..

- ماذا فعلت؟

تهرّبت من سؤالي وقالت.. ألن تتنازلي وتذهبي إلى الكلية؟.. لقد جاء غيث مرتين خصيصاً لرؤيتك وكل مرة يرجع خائباً بخفيّ حُنين.

قلت بهدوء.. صحيح كيف حاله..؟.. لي مدة لم أره.

- هو كذلك قالها..- أطرقت رأسها وراحت قدمها تعبث بغلاف قطعة حلوى كان على الأرض..

.. ربما لم يكن يظهر أمامك أي إعجاب لكنه يضمر لك من المحبة والاحترام الشيء الكثير وهو يتحيّن الفرصة المناسبة ليطلبك بشكل رسمي، صحيح أنه لا يجيد فن التغزّل والنظرات مثل غيره..

Scanned by CamScanner

لكنني أشعر بكل فرائصه ترتعد حين يراك.. كثيراً ما يكون الصمت أبلغ من الكلام.. قاطعتها منهكة وقد هربت دمعتان من عيني.. علا.. أرجوك..ما زلت في النقاهة.. ارحميني..

- آسفة.. أردت أن أطلعك على جانب مضيء في حياتك لم تعيريه حتى الآن أيّ اهتمام.. لنعد إلى المنزل بدأت تمطر..

Scanned by CamScanner

- ١٢ -

.. ها هي أيام أخرى تروح وتغدو وما زالت الكآبة تسيطر على روحي حتى ظننت أنها قدري ولن تنفكّ عني، كان يزيد منها إحساسي ألاّ أحد في المنزل يهتم بي، أبي في عمله طول النهار وحين يرجع يكون متعباً، ولطالما تذرعت عن عدم جلوسي معه بالدراسة غير أن الكتاب بين يديّ وذهني حيث يندب البوم وينعق الغراب.. زوجته تتحاشاني بالصمت كما أتحاشاها.. تتظاهر أنها لا تهتم بشيء ولا تنتبه إلى أيّ شيء، رغم أنها حاولت مرات استراق السمع عليّ أنا وعلا خلسة لتعلم بالخطب الذي جرى لي، ثم رجعت خالية الوفاض .. ومع ذلك أقول لنفسي خير لي من أن تضايقني أو تسيطر على أفعالي وحركاتي، حتى إخوتي قد اعتادوا حياتهم من دوني.. محمد يشغل معظم وقته بالدراسة أو اللعب على الحاسوب.. ورغد ورهف تدرسان وتلعبان وتخرجان للنزهة والزيارات مع أمهما.. وأنا أبقى وحيدة في الغرفة.. سجينة دون سجّان.. مجلودة دون جلاّد.. إنه سجن الحياة وسياط الزمن أرغب بالوحدة والعزلة دائماً وحين أحظى بهما يسخر الشيطان مني ويقول لي.. قد تركوك وأهملوك..

.. كم أنا مشتاقة لرؤية وجه أمي يزيح عن مخيلتي تلك الصور الكئيبة.. وسماع صوتها الرخيم يذيب قهقهة الأشباح من حولي..

Scanned by CamScanner

ولكن لا رغبة لي في الذهاب إليها بهذه الحال البائسة.. ستضيق الخناق عليّ بأسئلتها ولا أبغي نقل عدوى الكآبة إليها.. رغم حيرتي وترددي إلا أنني أحوج ما أكون إلى دفء حضنها وحنان صدرها، وكم تمنيت لو أرجع طفلة السنوات الثلاثة تطبخ لي.. تغسل لي.. تمشط شعري.. تغني لي أغنية قبل النوم.. تقبلني من عينيّ حينما أبكي.. ثلاث سنوات خير لي من ثمانية عشر عاماً.. بكيت وتألمت.. انكمشت وتعقّدت .. وهي عن كل ذلك في غفلة تامة..

طرق أبي باب غرفتي يوماً فسارعت بمسح شذرات دموعي.. دخل مبتسماً وهو يقول.. أديبتنا الكبيرة في عزلة.. ما الحكاية..؟

حاولت مبادلته التحية بابتسامة ما لبثت أن اصطبغت بلون كآبتي.. لا تقلق يا أبي.. إعياء بسيط.. احتضن يديّ بين يديه.. أعلم يا بنتي أن همومك أكبر من سنك.. صدى ضحكات أترابك تشنّف الآذان.. ولكن.. لكل إنسان نصيبه في هذه الحياة.. ولابد أن يبدّل الله عسر المرء بيسر قريب.

لا أدري كيف فهم نظراتي إليه بالعتب واللوم.. لا تلوميني.. كان الأمر سيُقضى مهما طال..

- لِمَ..؟

- لعدم التكافؤ.. الثقافي.. المادي.. السنّي.. كل شيء كان متفاوتاً.. جدتك، رحمها الله، راحت تغريني بجمالها الأخّاذ

Scanned by CamScanner

وتغطي به على ثقافتها التي لا تتعدى الشهادة الابتدائية في حين كنت متخرّجاً لتوّي من كلية الاقتصاد وبتقدير جيد جداً.. كان الفرق بيننا كبيراً.. أعيتني في مداواة عللها دون جدوى.. لا ترضى عن الثراء بديلاً.. ولا تكفّ عن الزجر واللوم والعتب، وتدحرجت عيناه في الأرض.. وحتى أحياناً .. الإهانة...!

- كفى يا أبي.. لست ملزماً باستنباط جراح الماضي، أحاول الرضا بقدري.

- كنت ضحيتنا.

- قلت بأسىً.. ضحية خير من ضحيتين..

حتى أبواي بدأا يشعران بذنبهما تجاهي أكثر من أي وقت مضى، لقد حملت جدتي عنهما عبئاً كبيراً.. وبوفاتها تشعثت كل خيوط حياتي.. وكأنها كانت حمامة السلام.. حضن الدفء والأمان.

جاءتني علا تقول مازحة.. ألم ينقضِ أجل عدتك بعد..؟ أما زلت حبيسة هذه الغرفة..؟ عندي لك حل رائع يخرجك مما أنت فيه وينسيك شيئاً مما مضى.

نظرت إليها وكأني فعلاً أتوق لحل يخرجني من كآبتي ويكسر طوق عزلتي.. استطردت: ما رأيك ياعاشقة الطبيعة بيومين نمضيهما في قريتي.. لطالما حدثتك عنها وتشوّقت لرؤيتها، غداً يوم الجمعة

Scanned by CamScanner

والسبت عطلة.. ومن بعدها نعود إلى الكلية كأن شيئاً لم يكن، علك تتفرّغين بعد ذلك لدراستك التي هجرتها..!.. ما رأيك..؟

- لا أدري.. أرغب في كل شيء.. وفي الوقت نفسه لا رغبة لي في أيّ شيء، في كل الأحوال زوجة أبي دعت إلى وليمة عدداً من قريباتها وصديقاتها يوم السبت.. لا أطيق الجلوس في هذا الجو بهذا الظرف.. ولا أريد أن أحلّ نزيلة على أمي كيلا ترى حالتي.. سأطلب الموافقة من والدي.

جلست على سريره قبيل نومه.. ما بك يا بنتي.. أيلزمك شيء..! بحاجة إلى نقود..؟

- لا .. شكراً.. أطال الله في عمرك.. علا دعتني لنزهة إلى قريتها.. توسّمت فيها خيراً لأهدّئ أعصابي وأحسّن من نفسيتي.

- ولكن.. يا بنتي..

- لن ننام سوى ليلتين.. نذهب غداً صباحاً ونعود صباح الأحد، دار عمها كبيرة كما وصفت لي، وفيها غرفة خاصة للضيوف بمعزل عن بقية الغرف، وزوجا أختيها يذهبان للعمل منذ الصباح ولا يعودان حتى الليل.

- هل أنت راغبة في الذهاب..؟

- هكذا أشعر..!

Scanned by CamScanner

قال مبتسماً.. بشرط.. أن تعودي بابتسامتك التي عهدتها تغمر وجهك

- أتمنى ذلك.

خرجت من المنزل كمن يخرج من غرفة إنعاش، طول الطريق وعلا تثرثر في الحافلة وأنا أتأمّل الأرض الجرداء أقفرها الشتاء وخلع عنها ثوبها الأخضر السندسيّ الجميل، استقبلتنا أختاها بأحسن ما يكون الاستقبال، فهما تسكنان معاً عند حماتهما في بيت عمهما المتوفّى، كانتا لطيفتين وخفيفتي الظلّ أزاحتا عني شيئاً من غمامة الحزن، أطفالهما كُثُر حتى خلت نفسي أنني في إحدى رياض الأطفال، أما زوجة العم (الخالة أم جمعة) فهي أرملة، وقورة، قوية البنية والشخصية، يتراءى لناظرها أنها أخت رجال، ملابسها فضفاضة بسيطة، تضع على رأسها منديلاً ملوّناً، وعلى ذقنها وشم قديم العهد.

أعدّت لنا الخالة أم جمعة وكنتّاها مائدة وضعت على الأرض وفيها أصناف متعددة من الأطعمة الطبيعية الدسمة والصحية.. فروج محشو ومطبوخ بالسمن العربي.. سلطة من كل ما توافر من خضار الموسم.. لبن دسم.. مقالي.. تبولة.. كبة نيئة، ضحكت وقلت.. يا خالة.. شبعنا بمجرّد النظر..!

قالت بلغة ريف بسيطة.. هذا من فضل الله.. كلي ولن تندمي.. أنتما ضيفتانا وإكرام الضيف واجب.

Scanned by CamScanner

.. فعلاً.. لأول مرة آكل بشهية وهناءة بعد هذه الفترة العصيبة.. يبدو أن وصفة علا كانت في محلّها.. فطلاقة الطبيعة ونقاء هوائها وبشاشة الوجوه وحسن الضيافة.. كل ذلك غيّر غمامة حزني تدريجياً، أمضينا اليوم الأول كلّه مع أختي علا نتسامر ونمزح ونحن جالسات حول المدفأة وهي تزأر متقدة، حتى الليل في الريف كأنه ليل آخر غير الذي نعرفه في المدينة.. في المدينة أضواء وضوضاء.. في المدينة حركة لا تعرف النوم.. ولكن هنا.. أرى السماء بلونها الحقيقي.. النجوم تتلألأ كدموعي المتناثرة.. والقمر يبكي وجعي ويمنيني بأيام أجمل، عواء الذئاب يتناغم مع نعيق الضفادع.. ونعيب البوم يغني للأشجار وهي تتراقص مع صفير الرياح.. كل شيء هنا يحكي الطبيعة البكر ويلهج القلب ليسبّح بحمد الله العظيم.

وضعت الخالة أم جمعة فوقي الدثار وهي تقول لي: الليل هنا قارس البرودة.

أخشى أن ترجعي إلى أهلك مريضة. وضعت يدي تحت رأسي وكذلك فعلت علا وتابعنا السهرة وحيدتين، كنا نتهامس كيلا يصل صوتنا إلى الغرف المجاورة، سألتني علا..

هل أنت سعيدة..؟

Scanned by CamScanner

قلت بابتسام.. حتى الآن كل شيء على ما يرام، وأكثر ما يسعدني أننا سننام معاً لأول ليلة، لقد ذكرّتني بجدتي رحمها الله.. منذ وفاتها ولم يجاورني في الفراش أحد.

ابتسمت وهمست في أذني بخبث.. غداً سيأتي من لا يفارق فراشك أبداً..!

ضربتها بوسادتي وهي تضحك من أعماق قلبها وتكتم الضحكة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

.. استيقظت على صياح الديك عند الفجر وأنا بكامل نشاطي وحيويتي رغم أنني نمت وعلا متأخرتين، الدجاج ينقّ في قنّه مسبّحاً بحمد الله، كانت الماء مثلّجة حين توضأت.. غير أن صلاة الفجر هنا لها طعم آخر.. أرى فيها الفجر الذي أقسم به الله تعالى، أرى فيها انبلاج صبح يوم جديد من بين ثنايا ليل رحل إلى مخدعه لينام ويعود زائراً بعد ساعات متغلغلاً بين ثنايا الصبح.

كنت أتلو القرآن الكريم بكل خشوع وتدبر واشتياق وقد وضعت بطانية على ظهري وأكتافي حين دخلت الخالة أم جمعة إلى الغرفة وتساءلت بابتسام.. أراك قد صحوت باكراً..! لِمَ لا تأتين إلى الغرفة المجاورة.. لقد أشعلت المدفأة..؟

- شكراً يا خالة.. أنا مرتاحة هنا.

Scanned by CamScanner

- عهدت في أهل المدينة أن يستيقظوا والشمس ترقم الوجوه...؟!

- لأنهم لا يملكون ما يدفعهم للاستيقاظ مبكرين.. أما هنا.. فكل شيء يقول لك.. اصحَ يا نايم..وحدّ الدايم..!

تقلّبت علا في فراشها ثم قالت وهي تفرك عينيها.. ما الذي جاء بالمسحّر...؟ ألم ينقضِ شهر رمضان..؟.. كم الساعة الآن..؟

ضحكت من أعماقي وقلت لها.. السادسة والنصف.. هيا انهضي.. كفاك نوماً..

غطّت وجهها بالبطانية وهي تقول.. وما الذي سيوقظني قبل الشحّادة وابنتها.. الجو بارد دعيني أنام.. لو كنت أعلم أنك ستوقظيني الآن لما أحضرتك معي.. أنت غاوية تعب وشقاء...!

..جبنة.. قشدة.. حليب.. بيض مسلوق.. لبن.. زيتون.. عطّون.. مربى.. زبدة.. خبز ناضج من التنّور.. إنه إفطار رائع.. ياه.. كم ابتعدنا عمّا سخّره الله لنا، ويتساءل الناس عن كثرة الأمراض.. ولو أن أحدهم سلّم جسده وأعصابه للطبيعة لما أخذت منه ما تأخذه المعلّبات والكيماويات وعكر الهواء وضجيج المعامل.

بدأت الشمس تخترق الغيوم البيضاء واهنة خافتة.. تمشي ببطء كأنها متعبة، والغيوم ترسم لوحة ما أبدعها من يد فنان مبدع..

Scanned by CamScanner

تتكاثف هنا وتتكاثر هناك.. تتباعد هنا وتتقارب هناك، رجعت إلى عهد طفولتي وصرت أرسم من تلك الغيوم ما يحلو لي من الأشياء- هذا كرسيّ جدتي الهزّاز..هذه دميتي التي تركتها هناك.. هذه نبتة الدفلة في شرفة بيتها.. وتلك مسبحتها وقد انفرطت حباتها كعقد لؤلؤ أو عنقود عنب، مازلت أحن إلى بيت جدتي وإلى كل قطعة فيه، مازلت أشعر أن خروجي منه كان عنوة وقدراً فرضه عليّ الزمن.. كان انسلاخاً من جذوره التي ذبلت حناياي بانفصامي عنها.

أحضرت علا كرسياً وجلست بجواري وقد ألقت على كتفيها معطفاً وراحت تفرك يديها قائلة.. ألا تشعرين بالبرد هنا..؟ أرض الدار مكشوفة ومقفرة. قلت لها.. أنت ترينها كذلك..!

- وددت لو أنك جئت في فصل الصيف أو الربيع لكان الطقس أجمل والطبيعة أبهى، في الصيف دوالي العنب تغطي وتحجب أشعة الشمس عن معظم أرض الدار.. يداعبها النسيم العليل وتتسرّب الشمس بين أفنان هذه الخمائل بخيوط ذهبية متوازية تنعكس على الأرض وعلى وجوهنا حيث نمدّ البساط هنا ونجلس مستندين على الوسائد خلف ظهرنا، وحفيف الأوراق يهب قشعريرة في موجة حر ويمنح المرء شعوراً لذيذاً، العصافير تثب من غصن لآخر ورفرفة أجنحتها تبهج القلوب.. ويالله الجمال

Scanned by CamScanner

حين نتناول الغداء هنا ونسمات الهواء تهلّ، كل تارة تعبث بشعورنا وتخفف من وطأة الحرّ، وشجرة (الأنكدنية) تغدق علينا بثمارها اليانعة.. والفلّ والياسمين الأبيض والروائح الزكية التي تفوح بعبقها والزنبق بألوانه الزاهية وتصميمه المبدع، وحين نمدد (النربيج) ونسقي المزروعات عند العصر ثم نرشّ أرض الدار وجدرانها..

تشمّين عبق التراب الندي.. إنها رائحة بلدي.. قلت مندهشة.. هيه.. على رسلك.. أريد أن أحضر ورقة وقلم لأدوّن هذه الطفرة الشعرية لأنني متأكدة أنها لن تتكرر..!

ضحكت وقالت.. فات الأوان.. لقد طار الوحي..!.. أنسيت أننا في قسم اللغة العربية وأن الطبيعة هي ملهمة الشاعر..؟!

بعد الغداء خرجت وعلا لنتمشى في أنحاء القرية، ناسها بسيطون طيبون تُعرف سيماهم من وجوههم، لا يخيل لك أن أحدهم يعرف شيئاً اسمه الغدر، وإن وجد بينهم فهو المنبوذ الخائن.. عندهم النخوة والشهامة والمروءة هي مهر الفتى الخاطب.. هكذا حكت لي علا.. أولاد القرية يلعبون في الأزقّة وسراويلهم تلتصق بالأرض فتحظى بغبارها وأتربتها ثم يعودون فيرفعونها على عجل ويتابعون جريهم.. أنوفهم تسيل من البرد فيمسحونها بأكمامهم!.. ما إن يرانا أحدهم حتى يتوقف عن اللعب وتتسمّر عيناه فينا حتى نغيب عن أنظاره، وكأنهم قد ألفوا

Scanned by CamSc

وجوه سكان القرية وصار تمييز الغريب فيها أمراً هيّناً، الفتيات الصغيرات يجلسن على عتبة الباب وبيد إحداهن قدر طبيخ تضرب عليه والبقية تصفق بيدين ناعمتين ويهتفن كل تارة بزغردة طفولية بكر.. حوانيت القرية صغيرة بسيطة .. يبيعون فيها السكاكر والقضامة والراحة والجيلاتين والدقّة والمصاصة، مرت أمامنا بدوية تحمل زوّادة على كتفها وتنادي..أسنان ذهب.. أسنان ذهب، سألت علا.. وما هذه اللوحة الجديدة..؟ ضحكت وقالت.. بل هي لوحة قديمة الأزل وتعتبر الآن من التراث الشعبي.. معها دبلوم تعويضات سنية..! سألت باستغراب.. ماذا..؟

قالت بابتسامة.. لكنها أخذت شهادتها من معهد الحياة الطلبة يدرسون ويتعبون ويجهزون المخابر وهي وأمثالها يعملون بشكل يدويّ وبخفة يد عجيبة، زوجة عمي أم جمعة تضع سناً من صنع هذه المخبرية، ألم تلحظيه يلمع برّاقاً من بين أسنانها..؟!

- أمازال هناك من يسلّم فمه إليها وإلى أمثالها..؟ ما الذي يدفعهم إلى ذلك..؟

- العوز والضيق حيناً.. والجهل حيناً.. واتباع أساطير الأوّلين حيناً آخر..

جلسنا على سطح رابية ارتفعنا فيها قليلاً عن البيوت والأزقة، وبدت القرية كمشة من البزر المحمّص، أخرجت من محفظتي دفتراً وقلم رصاص.

Scanned by CamScanner

شهقت علا وصاحت بي.. هل سترسمين الآن؟.. لقد تثلّجت من البرد!

- لا تقولي: إنك تجهلين إبداعي في الرسم..!

- يا عزيزتي.. أنت وكل الرسّامين على رأسي، ولكن دعينا نذهب الآن، سأحضرك في الصيف وارسمي حينها كما يحلو لك.. الطبيعة وقتذاك أجمل.

- لكل فصل جماله.. أم أنك تريدين أن تستأثري اليوم بالوحي لوحدك..؟ اذهبي أنت إن شئت..!

- .. كم أنت متعِبة..! أنا التي أشفقت عليك وأحضرتك معي.. حسنٌ..سأذهب إلى الدار لأحضر بساطاً نجلس عليه بدل هذا الحجر المتجمّد.. وسأحضر شيئاً من الطعام. لن أتأخر.

راحت أناملي تداعب القلم بخفة وترسم الخطوط بحيوية ورشاقة، مضى لي وقت طويل لم أرسم فيه لكن الحنين دبّ فجأة في هذا القلم الحيّ وبدأ يرسم الجبال البعيدة البعيدة .. الشمس ترنو إليها وتقترب منها تريد الالتصاق بها.. فيها الحب.. وفيها الحياء.. فيها الصمت.. وفيها النجوى، الأشجار عارية تستحي من عورتها، والغيوم مكفهرّة تكمد غضب السماء، والرياح الصرصر مجنونة تصفر وتهيج كمن أصابه نوبة صرع.. تحمل معها أوراقاً صفراء لا حول لها ولا قوة وتلعب بها بعنف..

Scanned by CamScanner

- رسمك جميل..صوت أجش جاء من فوق رأسي، ارتعدت يدي من مخافة الصوت، التفتُ ورفعت ناظريّ رويداً لأرى شيخاً هرماً يلفّ وجهه بمنديل مخطط ولم يبقِ منه إلا ما يعينه على النطق والشمّ والبصر، يرتدي معطفاً سميكاً ويمسك بيد كبيرة عكّازاً هرمة معوجّة اقتلعها من بين الأغصان، كان يمسك بها بقوة، قبضته حازمة.. حذاؤه ضخم مغطّى بالوحل.. وعلى منكبيه الواسعتين بقايا أوراق من التي لعبت بها الريح فتكمّش بها قماش المعطف الخشن، كان واضحاً أنه خرج للتوّ من أحد الحقول.. تأمّلت ملامح وجهه الأسمر ولحيته الكثّة البيضاء تغطي نصفه، ثم وقفت بإجلال فاغرة الفاه.. تشبه جدي رحمه الله..!

- رحمه الله..!.. ما الذي أجلسك على هذه الصخرة الصفوان..؟ يبدو أنك ابنة مدينة وقد لا يتحمّل جسدك هذا البرد.

- ذهبت صديقتي لتحضر بساطاً.. ولكن.. من أنت..؟

قال بصوت وقور وعيناه تسبحان في الفضاء: شيخ طاعن في السن.. طاحن الحياة وطاحنته.. يَمِل من أيامها وينتظر رحاها لتطحن ما تبقى منه من أشلاء.

- كلماتك توحي أنك مررت بظروف صعبة..؟

- ومن منا يا بنتي لم تدعكه الحياة..؟ من منا لم تدمِ يديه أشواكها حتى يشمّ عبق أريجها..؟ من منا لم يدفع الدموع مهراً

Scanned by CamScanner

لابتسامة..؟.. السعادة يا بنتي ما هي إلا لحظة استراحة من الألم .. ثم كرر وأكّد.. لحظة ..!

- حدثني يا جدي عن الحياة..

صمت هنيهة ثم تنهدّ فتصعّد من فمه بخار أبيض كثيف.. كلنا يا بنتي غرباء في رحلة الحياة.. جئنا ولا نعرف من أين.. نعبرها دون أن يكون لنا رأي في مسيرتها.. تائهون في دروبها.. تلوح لنا فيها السعادة وتهرب كالسراب.. وسعيد الحظ من تقوده خطاه نحو طريق الإيمان والقناعة، فالقناعة كنز لا يدرك قيمته إلا من أسبغ الله عليه فضله في دنيا ملكت أطماعها كل الناس..! جاءت علا على عجل لترانا واقفين بكل خشوع.. مرحباً عم عبد القادر..!

- أهلاً يا بنتي.. أنت ابنة محمود، رحمه الله، أليس كذلك..؟ لقد أصبحت شابة.

ثم وضع يديه المنبسطتين على كتفينا وقال بابتسام وعيناه تحكيان الحكايا.. كونا قويتين شجاعتين.. مازلتما في الخطوات الأولى من رحلة الحياة.. لا تقفا عجّزاً عند العراقيل.. استعينا بها في الصعود إلى القمة قُدُماً. أستودعكما من لا تضيع عند الودائع.

قلت بلهفة..جدي..دعك معنا قليلاً.. أسمعنا..!

ربّت على كتفي فراح يهتز له.. كفاك ما سمعت..!

Scanned by CamScanner

ومضى في حين وقفت مذهولة به أتأمل طيفه يغيب عني والظلام يبتلعه رويداً رويداً، وقفت علا أمامي ولوّحت بيديها.. هيه.. نحن هنا..!

- سبحان الله يا علا.. هؤلاء الهَرِمُون.. هم خلاصة تجارب هذه الحياة.. صفوة عكرها.. عصارة ألمها.. يجمعون ويكدّسون مئات الأيام.. بل آلافها.. يعتصرون لظاها وعلقمها ويسقونك رحيق العلقم بجلسة واحدة لتستشعري في ظرف لحظة بحلو العصير ومرّه.. تماماً كحلاوة الأيام وعلقمها..!

تطلّعت علا إلى الشفق الأحمر.. لقد بدأ يحلّ الظلام.. تأوّهت بانتعاش.. الله..!! وضعت يديها على رأسها وهي تقول.. ويحي.. ستمضي الآن ساعة أخرى في وصف الغروب.

ضحكت وقلت: لا .. لا.. دعينا نمضي.

- وهذه الأثقال التي معي، لقد أحضرت بساطاً وفطائر وحافظاً للشاي، حرام عليك..!

لِمَ تعذبيني هكذا؟.. ماذا فعلت لك..؟

- لن أوفّر شيئاً.. تعالي نتاول الفطائر ونشرب الشاي ونحن نتجوّل في الطريق.

- وهل تظنين نفسك على شاطئ البحر..؟ الشوارع مليئة بالناس..

Scanned by CamScanner

- علا.. دعينا نمتّع أنفسنا.. إنها لحظات لن يكررها العمر لنا. ثم إنهم يعرفون أننا من المدينة.

- وأنت التي صرت تتمنعين وتتدللين عليّ..!

- كنت مخطئة ، كم كنت بحاجة لهذين اليومين..! صحيح أنني كنت أتنزّه وأصطاف مع جدتي رحمها الله، برفقة أبي وعائلته، لكنني لم أشعر يوماً بمثل ما أشعر به الآن، لقد غيّر هذان اليومان من حياتي ونظرتي الشيء الكثير.. كم أنا ممتنة لك..!

عند بكور اليوم التالي كنا قد ودّعنا العائلة المضيفة بكل محبة وتواعدنا بإعادة الكرّة، خرجت من القرية وكأني ولدت من جديد.. ولدت من حكاية الدنيا ورحى الأيام.. ولدت من صخر الجبال وميسم الزهور.. عبر خرير الماء وحفيف الشجر.. ولدت لأردد شعار الحياة: ﴿كل من عليها فان﴾.. ولدت لأغزل وشاح العمر.. كلّما طال.. كلما دفأني بوهج حقيقته..!

Scanned by CamScanner

-١٣-

حاولت قلب تلك الصفحة المظلمة من حياتي وتناسي كل ما فيها.. حاولت إقناع نفسي أنها مجرد تجربة فاشلة.. لعلّها هفوة.. نزوة.. لعلّها لم تكن حباً.. بل سراب حب. استجمعت كل قواي وذهبت إلى الكلية، كانت سعادة علا كبيرة بعودتي إلى حياتي الطبيعية وبسمتي الخجولة، بدأت تقذفني بكلمات الإطراء والمديح ثمّ رأت معي كيساً سألتني عن محتواه فأجبت بغصّه.. أنسيت أن له عندي هذه الأمانة، وقد آن الآوان لإعادتها له..؟

أنا انتظر مجيئه.

- هل تريدين أن أكون معك..؟

- لا .. أفضل أن أكون وحدي.

رأيته يمشي مع مجموعة من الأصدقاء وهو يتوسّطهم ويستأثر عيونهم بحديثه وزهوّه، اغرورقت عيناي بالدموع فأسرعت بكبت نفسي وابتلاع كل غصصي وتظاهرت بالجرأة حين أتى إليّ وهو لا يعلم بعد علم شيئاً..

- كيف حالك أمل..؟.. لم أرَك حتى الآن.. انشغل بالي عليك..!

Scanned by CamScanner

أجبت ببرود..واضح تماماً.. حمداً لله على السلامة...!.. هل كانت رحلتك إلى مصر ممتعة؟

- جداً..!.. من قال لك..؟.. هل اتصلت بي إلى المنزل..؟

- لا..! وحين لاحظ جفائي راح يحك ذقنه ويقول..

- والدي طلب مني السفر إلى مصر للقيام ببعض الأعمال.. وفي الوقت نفسه أمتع نفسي وأرتاح من...

قاطعته ببرودة أعصاب.. ألا تملّ من تلفيق القصص والأكاذيب.. بل وحتى الأحاسيس. نظر إليّ نظرة المظلومين وتساءل..أنا..؟

قلت بضجر.. لن أضيّع وقتي أكثر من ذلك، خذ هديتك لست بحاجة إليها، واعذرني فقد استعملتها لمرة واحدة.

قال بطيبة كدت أصدّقها.. دعيها بحوزتك.. ما الذي جرى..؟

- إلى هنا وكفى.. وأتمنى أن أكون آخر فتاة قد عبثت بمشاعرها.. أتمنى ذلك..!

تركته ومشيت والدم في عروقي يغلي ويفور، ولكن السؤال الذي ألحّ عليّ.. لِمَ وقفت أسمع كلماته؟.. لِمَ لم ألق هديته بين يديه وأمضي..؟.. لِمَ..؟

سألتني علا بلهفة.. ماذا قلت له..؟ هل ضايقك بكلمة..؟

Scanned by CamScanner

- لا.. راح يتكلّم بكل بساطة كأنه لم يفعل شيئاً، يصطنع البراءة كعادته..!

- المهم الآن أنك تخلّصت من قبضته.

- ما يضايقني يا علا هو أنني حدّثت أمي عنه، ماذا سأقول لها الآن إن سألتني عنه؟ إنها لا تكف تلميحاً عن خطبتي القادمة، هل سأقول لها إنني كنت غبية وقلبت الموازين تبعاً لهواي..؟ هل أقول لها: إنه كان يريد خداعي..؟ .. وهي التي نصحتني منذ الأيام الأولى من الجامعة وحذّرتني من عبث الشباب، فضربت صدري بيدي وقلت بكل فخر.. أنا قدّ حالي.. أيّ حال ضعيفة هشّة...!

- كفاك يا أمل تضخيماً للأمور- قولي لها: إنك لم تري فيه الصفات التي تبتغين وأن نهج حياته غير نهج حياتك.. وكفى...

- وهو كذلك.

عدت إلى المنزل وقد كان خالياً، كنت أخلع ملابسي وأنا ثائرة الأعصاب، الهدوء يعمّ المكان إلا من تغريد عصفوري الحب.. نظرت إليهما عن كثب.. تذكرت كلمات علاء وهاج الدم في أعماقي فضربت القفص ضربة مروّعة راح يهتز لها يمنه وشمالاً كرقّاص الساعة والعصفوران داخله يصيحان خوفاً وهلعاً، اشمأزّ قلبي مما اقترفته يداي وارتميت على السرير أنتحب لنفسي الضائعة وقد جنى عليها الزمان.

Scanned by CamScanner

كنت أستعدّ للذهاب إلى الكلية حين دخلت علا والوجوم يملأ وجهها.. خير علا..؟ ما بك..؟..لِمَ وجهك شاحب هكذا..؟

قالت بصوت خافت.. لم أنم طيلة أمس، خبأت وجهها بين كفيها وأجهشت في البكاء، حاولت تهدئتها ثم حدثتني بصوت متعب.. أعلمت أمس أنني سأستلم المبلغ اليوم، وليلة أمس عاد وفتح موضوع التصرّف فيه للمرة الألف.. كانت الأسرة كلها مجتمعة وكل يتفقه ويحكي رأيه، وأخيراً نطق والدي وقال: الأموال ستودع في المصرف.. ولا رأي آخر، قام أخي الأكبر ولم يقعد.. راح يتبجح ويهذي.. إنه في ضائقة مالية كما هو حاله دائماً.. لا يعرف شيئاً اسمه التوفير أو التدبير.

- وهو يطالب باستدانة المبلغ..؟!

- يسميها استدانة غير أنها إن ذهبت إليه فلن ترجع، ومن غير المعقول أن أكتب على أخي سند أمانة.. تصوّري.. إنه يطالب بالمبلغ وكأنه صاحب حق.. حتى إنه جرحني بكلمات مؤلمة، وراحت تبكي بألم.. لقد نبش الماضي.. ونسي العشرة.. صار يبعق.. نحن آويناها.. نحن ربيناها أحسن تربية.. كلنا كنا خدماً لها. ونظر إليّ بحدة.. أنت ناكرة الجميل.. لا تستحقين مجرّد صدقة.. وإن خرجت من هنا فلن يلمّك أحد..!

- يبدو أنه كان في أوج غضبه.. وإلا لما تفوّه بهذه الكلمات..

Scanned by CamScanner

- بل قولي طلقات.. لقد ألجم لساني و لم أستطع أن أتفوّه بكلمة، أمي صرخت في وجهه وصارت تبكي وتلعن النقود، أما أبي فقد طاش صوابه وطرده من المنزل أمام جميع إخوتي.. لقد كبرت المشكلة كثيراً.. وأنا هربت من مجلسهم وأقفلت الباب عليّ من غرفتي، ورحت أبكي كما لم أبك من قبل.. الكل يناديني ويطرق الباب وأنا عنهم معرضة، وحتى اليوم.. خرجت من المنزل دون أن يشعر أحد..آه.. أشعر بالصداع.

أمسكت بيدها وقلت لها: كفاك تفكيراً، وسلّمي أمرك لصاحب الأمر، تعالي معي إلى المطبخ لأحضّر لك عصير ليمون يهدّئ أعصابك، ومن ثمّ نذهب لنحضر المحاضرة كي تنشغلي قليلاً عن مشكلتك.. والله المال في حالتك بات نقمة وليس نعمة..!

وحين كنت أمشي معها في الكلية أوقفنا علاء ثائراً وهو يقول لي بأسنان تصطكّ غيظاً.. ..أمل.. لست نداً لي.. ولا يحق لك أن تتدخلي بشؤوني..!

نظرت إليه بكل استغراب وقلت.. ما الأمر..؟

فقال بحزم.. لا تتظاهري بالغباء أنت تعرفين ما أعني، وسأثبت لك يا أمل أنك لست نداً لي.. سأثبت لك.. ترقبيني..

ومضى يهرول وأنا مشدوهة النظر ثم التفتُ إلى علا وهي تقول بسخرية.. افعل ما يحلو لك..! سألتها بدهشة.. ماذا هنالك يا عُلا..؟..هل تخفين عني شيئاً..؟

Scanned by CamScanner

قالت بثقة.. لم أخطئ لأخفي.. لقد أقسمت يميناً ثم وفيت به.. انتقمت لك منه..!

- ماذا فعلت يا مجنونة..؟

- أمر يسير.. كلّما شاهدت معه فتاة ترصدتهما حتى إذا رأيتها وحيدة ذات مرة قمت بتحذيرها منه، لقد فعلت ذلك ثلاث مرات، ويبدو أنني نجحت في انتقامي وإلا لما جاءك هائجاً كالثور..!

- يالك من متهوّرة.... وهل نضمن تبعات انتقامك هذا..؟.. من قال لك: إنني أريد الانتقام منه، لقد شكوت أمري إلى الله تعالى وقلت : هو حسبي ونعم الوكيل، أرفض فكرة الانتقام من أصلها.

- لاتخافي من وعيده.. إنه يتبجح من فراغ..

- لاتنسي أنه ثري وأسرته لها أيد في كل الأصعدة، يستطيع أن يفعل ما يشاء ثم يكمّ الأفواه بقطع من النقود..!

- ولكن.. من الذي أوحى له أنك من حرّضت فتياته عليه...؟

- لاأدري.. ربما لآن كلماتي الأخيرة له كانت تفهم على أنها انتقام أو رد فعل، قلت له..إلى هنا وكفى، أتمنى أن أكون آخر فتاة قد عبثت بمشاعرها، لكنني لم أقصد أكثر مما قلت..!

Scanned by CamScanner

- إنك تقيمين له شأناً إن توجّست خيفة من وعيده، ما عليك إلا أن تزدري حماقاته وحسبك الله ولياً.

حاولت العمل بنصحها وتجاهل ما جرى، وبعد المحاضرة خرجنا من القاعة لنجد غيثاً ينتظرنا، قال لي: صديقتك يا أمل أصبحت غنية ولم تعد ترضى أن تلقي علينا تحية الصباح قبل خروجها..! فقالت بحزم: هذا ليس وقت المزاح يا غيث، أفكر فعلاً بإعطاء المبلغ له وليذهب في الجحيم.. لقد جلبت لي هذه الحثالة من الأموال الهمّ والصداع.

- لكنك تعلمين أن كلمة والدنا لا تصبح اثنتين، وقال: إن الأموال ستودع في المصرف يعني ستودع في المصرف، وهو من أوصاني أن آتي إليك وآخذك مباشرة لاستلام المبلغ ومن ثمّ إيداعه، يعني أن أحداً لن ينعم برؤيته من إخوتنا.. أليس هذا أفضل..؟

راحت تنظر إليه بابتسامه وكبرياء.. ثم عاد فقال: ما رأيكما أن تدعونا علا إلى وليمة غداً في مقصف الكلية حلوان الصلح..؟

فقالت بضحكة.. دائماً أكنت الرابح في النهاية..!

نظرت إليه وقلت لعلا: أغبطك على غيث يا علا.. يعلم تماماً ما تحتاج الأخت في أخيها .. وقلة من الإخوة من يعلم ذلك..!

Scanned by CamScanner

- ١٤ -

مرت بي الأيام رتيبة قد نثرت شيئاً من ركام النسيان على قلبي واندمل جرحي و لم يبقَ منه إلاّ الوشم، تناسيت الأحداث حتى نسيتها و لم أعد أذكر منها إلا عبرة للأيام القادمة ودرساً جديداً من دروس الحياة الصعبة.

ذهبت ذات يوم لزيارة أمي لكنها كانت قد ذهبت مع لؤي إلى السوق دون أن أدري، استقبلتني صبا وحيدة في المنزل؛ جلست قليلاً معها ورحت أمعن في دفاترها ووظائفها..

- أتدرسين جيداً يا صبا..؟

- لا بأس..!

- هل يلزمك أيّة مساعدة..؟

- لا.. والدي يفكر أن يحضر لي مدرسين خصوصيين إلى هنا..أمل.. أريد أن أسألك سؤالاً..

- اسألي.. راحت تلعب بالقلم تارة.. وبشعرها الكستنائي تارة أخرة.. استجمعت صراحتها وقالت..

- هل عندكم في الكلية طالب اسمه علاء راغب...؟

قرع اسمه في أذني عالياً كما يقرع الطبل، نهضت من مجلسي وسألتها بسرعة.. كيف عرفت..؟ تلعثمت حين رأت انفعالي

Scanned by CamScanner

وقالت.. ماذا عرفت..؟ أسألك فقط إن كان حقاً طالب في كليتك..!

أمسكت عضديها بيديّ وقلت مذعورة.. من أين عرفته..؟

قالت بخوف.. إنه.. إنه يقف على باب المدرسة كل يوم.. ويطلّ من شباك سيارته عليّ .. أقصد.. علينا جميعاً.

- صبا.. إيّاك.. إيّاك يا صبا.. إنه شاب قذر.. إياك أن..

وقُرع الجرس فهربت من بين يديّ وفتحت الباب، دخلت أمي وقطعت حوارنا في قمته و لم أشأ أن أفتح الموضوع أمامها منعاً لإحراجي أو إحراج صبا، لكن قلبي ظلّ واجفاً، و لم يهنأ لي بال أو تطرف لي عين حتى ذهبت إلى مدرستها في اليوم التالي وقت انصراف الفتيات، بحثت عن صِبا بينهن فلم أجدها، سألتهّن عن صديقتها رزان التي كانت تكثر لي الحديث عنها فأشرن إليها.. ذهبت إليها بقلق.. أنت رزان..؟

- نعم..!

- أين صِبا..؟

.. ارتجفت شفتاها فجأة وهي تقول.. هل أنت أختها أمل..؟

- نعم.. كان عيناي تحملقان فيها وتتجرّعان صبراً حتى تتفوّه، لكنها صمتت وأطرقت رأساً و كأنها عازفة عن الإجابة، قلت بصوت أعلى وقد نفد صبري.. أين صبا..؟

Scanned by CamScanner

ارتعدت فرائصها وقالت على عجل.. هناك شاب أخذها معه بسيارته إلى أحد المطاعم ارتجف قلبي بشدّة وقلت بهلع وقد جفّ ريقي.. أي مطعم..؟

قالت وقد اصفرّ وجهها.. لا أدري.. لكنها قالت لي: إنه أخذها أمس إلى مطعم السعادة.

.. صعقت.. إنه ذات المطعم.. وكر الأفاعي.. هرولت دون وعي وأخذت سيارة أجرة فطارت بي طيراناً إلى المطعم، دخلت المطعم ووجهي كفرن التنّور، كانا جالسين على الطاولة ذاتها.. يا لدناءته.. يا لحقارته.. يضحك على عقلها الصغير.. ينظر إليها ذات النظرات الحارة ذاتها وهي تضحك وتغنج بطفولة حمقاء.. تقدّمت إليهما كفوهة مدفع، رفع كل منهما ناظريه إليّ، نظرت إلى صبا وإذ بها تحوّلت إلى خرقة منكمشة ترتجف خوفاً، نظرت إليه فإذا به يجلس على طرف وقد وضع قدماً على قدم والسيجارة بين أصابعه ينفخ نفثها في وجهي بكل حقارة.. قال ببرود.. أهلاً أمل.. علمت بالأمر سريعاً..!.. أمام كل الجلوس والعاملين على الخدمة.. لم أجد نفسي إلا وأنا أصفعه كفاً حاراً رقمت معالمه على وجهه.. جمد أمامي من فرط الدهشة وقد احمرّ وجهه كلون الدم في عروقي، أمسكت بيد صبا وسحبتها سحباً وهي تجرّ حقيبتها المدرسيّة وصوت احتكاكها بالأرض يقطع سكون ودهشة الحاضرين [illegible] تنبس بنت شفة..!

Scanned by CamScanner

ركبنا سيارة وأدخلتها إلى بيت جدتي.. نهرتها نهراً فأوقعتها على الأريكة.. رحت ألهث وأقول.. ماذا كنت تفعلين معه..؟

أجهشت بالبكاء وهي تتوسّل إليّ بصوتها الناعم.. أرجوك لا تخبري أمي.. ستشبعني ضرباً.. أرجوك.. أرجوك. لا تخبري أبي. سوف .. سوف يميتني من الضرب.. سوف يمنعني من المدرسة.

قلت غاضبة.. وهل أنت مهتمة بالمدرسة..؟ هل أنت مهتمة بسمعة فتيات المدرسة..؟ ألا تخجلين من نفسك وأنت معه في المطعم ببزّتك العسكرية؟.. ألا تخجلين من نفسك وحقيبتك المدرسية مازالت معك..؟.. ألا تعلمين أن هذا حرام وعيب أولاً.. وأنك صغيرة ثانياً..؟

ألم أحذرك منه أمس..؟ ألم أقل لك: إنه فتى قذر.. يهوى اللعب بالفتيات. أبك صمم..؟

هل وضع الله على قلبك الران فلا تبصرين ولا تعين..؟ كانت تبكي وأنا أوبّخ وأشتم.. صمتُ قليلاً ثم سألتها.. ألم تسألك أمي عن تأخرك أمس..؟ أجيبي..!

- قلت لها: إن هناك.. درساً إضافياً..

- درس إضافي.. درس رياضيات. أم درس فيزياء.. أم درس عشق وغرام..؟ تتذرّعين بالمدرسة لتحققي مآربك الشيطانية..؟.أتكذبين..؟.. وعلى من.. على أمك..أمك التي

Scanned by CamScanner

تخشى عليك أن تشاكي بشوكة..؟.. لم لا تقولين لها..؟..لأنك تعلمين أنه خطأ.. وأنها ستقول لك: إنه خطأ- ومع ذلك.. تقعين في الخطأ.. لم تبلغي الرابعة عشرة وتفعلين كل هذا ماذا لو بلغت العشرين..؟

- كفى يا أمل.. أرجوك.. أقسم أنني لن أكررها.. أقسم..!

نظرت في عينيها لأرى البراءة ناصعة تشكو عواء الذئاب.

- حسنٌ.. هذه المرة سأغفر لك ولن أعلم أحداً بالأمر، وسأظلّ أتردد على مدرستك كل آونة.. وسأسأل عنك جميع مدرّسيك، فإن سمعت عنك أيّ تقصير أو انحلال في الخلق لأكوننّ أول من يعلم والديك ليحجباك عن المدرسة، هيا... اذهبي الآن إلى البيت.. وإن سألتك أمك قولي لها: إنك كنت معي.. لا في درس إضافي..!

خرجتْ من المنزل وهي تكفكف دموعها وقد رثّ قلبي لحالها، لكنها كانت بحاجة إلى حزم في هذا الشأن. خصوصاً أن تربيتها اللينة الأطراف لن تجدي نفعاً مع زلل كهذا..! الشيء الوحيد الذي خطر ببالي بعد خروجها هي تلك المواعظ والحكم التي ألقيتها عليها كوابل من رصاص وأنا التي لم أكن أعي منها شيئاً حين وقعت في الخطأ نفسه..!

.. ما كدت أسند رأسي على الأريكة حتى سمعت صوت كبح فرامل سيارة، خرجت إلى الشرفة مسرعة وإذ بصبا ملقاة

Scanned by CamScanner

على الأرض والدم ينزف من أنفها، لم أشعر بنفسي كيف نزلت الدرج وأمسكت بها ومن ثم أخذتها إلى أقرب مشفى بالسيارة التي صدمتها ذاتها اتصلت من هناك بأمي.. وبعد قليل عدت واتصلت بعلا وطلبت منها المجيء فوراً.

جاءت أمي على عجل تسأل بلوعة.. ما الذي جرى..؟ أيّ حادث حصل لصبا..؟

- لا تقلقي يا أمي.. كانت تمشي مسرعة حين صدمتها السيارة.

سألت وهي تبكي.. أين هي..؟.. في أيّ غرفة..؟.. ما وضعها..؟

- هدّئي من روعك.. أصيبت برضوض بسيطة وخلع في الكتف، الطبيب عندها وعندما يخرج ندخل.. ولكن.. أين عمي.. لِمَ لم يأتِ معك..؟

- اتصلت به في الوكالة ولم يكن موجوداً لكنني تركت له خبراً أن يأتي إلى هنا بأسرع وقت.

- أمي.. الشرطة جاءت للاستجواب وهي تنتظر مجيئكما. أقترح أن تعفي عن السائق وتسقطي حقك فهو رجل شهم أوصلنا بسيارته إلى المشفى، ومن غير اللائق أن نقابل نخوته بالنكران.

اقتنعت أمي برأيي ومضى المحقق في حال سبيله، جاء زوج أمي في حال من الغضب..

Scanned by CamScanner

أين هذا السائق الأرعن..؟ ألم تسجّل الشرطة ضبطاً باسمه..؟

نظرت إليه بعجب وقلت: جاءت الشرطة واستجوبتنا وتنازلنا عن الادّعاء.

راح يجهر بصوته ويزبجر.. بأيّ حق فعلتما ذلك..؟ من سمح لكما..؟ سأرفع دعوى عليه...؟ سأقاضيه.. إنه سائق متهوّر...

فتح باب الغرفة فدخلنا جميعاً لنراها راقدة في الفراش والضماد يلفّ ذراعها وكتفها وشيئاً من صدرها، كانت في غيبوبة ولن تصحو قبل ساعة، جلست على الكرسي لأرتاح من عناء هذا النهار، أسندت رأسي بين كفّي وقلبي يخزني بإبر مسمومة لأنني السبب في حادث صبا والتياع أمي وهياج زوجها، جلست أمي بجواري وهمست في أذني بعيداً عن زوجها.. أين كنتما..؟.. كيف اجتمعتما..؟

ارتبكت قليلاً ثم قلت.. كنت أمشي بجوار مدرستها، رأيتها خارجة مع صديقاتها فدعوتها إلى قدح من الشاي في منزل جدتي وحين عودتها.. حصل ما حصل..!! رحت أهمس في أعماقي.. الله يخرب بيت الكذب..!

- وهل كان ذاك وقت الشاي..؟- أي قدر ساقها إلى بيت جدتك..؟

Scanned by CamScanner

سألت أمي.. من..؟

- لا شيء.. لا شيء.. لقد جاءت علا.

رحَبت علا بأمي وزوجها ثم أخذتني على طرف وقالت بهمس: ما القصة..؟

همست بغيظ.. ما الذي أخّرك..؟.. أنا السبب في كل ما جرى.. أنا السبب من بداية القصة خرجنا من الغرفة وهناك حكيت لها الأحداث بالتفصيل..

- أكلّ هذا يحدث في ساعتين..؟.. يا لوقاحته..!.. كيف يتجرّأ على اصطياد أختك..؟

.. بل كيف وصل إليها..؟

- أراد أن يحرق قلبي برؤيتها معه.. وفعل.. ليتني لم أحدّثه عن وضعي وحياتي.. لقد أوصلته بغبائي إلى رأس الخيط.. ولم يكن عسيراً عليه الوصول إلى نهايته، لو رأيت كيف ابتسم لي حينها.. كانت لذّة الثأر تتدفّق من عينيه تدفّقاً..!

- إنه شاب قذر..!

- لو كنت أعلم أنك ستنتقمين منه لمنعتك.. درءاً لعواقب كهذه.. هذه الحثالة من الناس لا أحد يستطيع التعامل معها إلا من يجيد فنّ لعق الوجوه كالكلاب..!

Scanned by CamScanner

- أتعلمين..!.. لقد شوّقتني لرؤيتك وأنت تصفعينه ذاك الكف، لم أرك ولا مرة بهذه القوة..!..

- اسكتي.. أنا واثقة أنه لن يفوّته لي.. يا ستر ا لله..!

Scanned by CamScanner

- ١٥ -

.. ماذنب هذه الفتاة البريئة..؟.. لم ترَ بعد من الحياة إلا المرح واللهو والثياب والصديقات، لا تدرك من الدنيا إلا شمسها الوضّاءة.. ولا تعرف إلا جدائلها الذهبية.. ما فكرت يوماً أن وراء هذا الجمال زيف وخداع، وأن لكل لوحة من لوحات الحياة وجهين كوجهي العملة النقدية الواحدة، لكل امرئ قناع.. منهم من يحكي وجهه ومنهم من يخفيه ، صرت أتردد على صبا كل يوم وأنا معذّبة الضمير لأنني أوقعتها في فخ كان قد نصب لي.. آه.. للحياة تداخلات عجيبة كأمواج الشطآن.. تتلاحم فيصهر بعضها بعضاً وتؤلف جميعها ما نسميه البحر.. وعلاء أحد هذه الأمواج المتلاطمة.. صورة عن الشر.. عن الحقد.. عن الضلال.. ما كرهته قط رغم أنه أضمر لي كل سوء.. لكنني آسف عليه وأشفق على جهله.. جهله أمور الحياة.. جهله معتركاتها، مهما لانت ملامسها له فسيأتي يوم ويسحب من تحته هذا البساط المخمليّ.. حين أتخيّل كيف ستدور الأيام عليه أرثي لحاله وأقول.. واحسرتاه.. سيضيع من بعد الضياع ضياعاً، سينقلب الذهب ما بين يديه يوماً إلى تراب، ويطلب الرفيق فلا يلقاه، وقد يطلب المعين فلا يجده.. ولكن.. هل سيرجع حينها إلى ربه..؟!

Scanned by CamScanner

ليته يفعل.. ليته يعلم ولو بعد حين أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..!.. ليته يؤمن بقدرة الله وجبروته.. ليته يؤمن بقضائه وقدره.. تماماً مثلما آمنت بهما منذ نعومة أظفاري.. منذ أن نشأت مشرّدة الأبوبين.. منذ أن أحسست أنني لست كغيري.. وأن شرخ النقص فيّ مازال يكبر.. ذاك النقص الذي أورث فيّ ضعفاً في الشخصية، وسذاجة في السلوك بل وربما غباءً في التفكير.. وقد زاد من كل هذا وذاك وفاة جدتي التي كانت الهواء الذي أشمّه، ومن ثم حلولي ضيفة ثقيلة الظلّ على عائلة أبي، كنت أشعر في كل لقمة أبتلعها بالغصّة.. وفي كل قطعة من المنزل أستخدمها بالحذر، وكأنني عالة على من في البيت.. ظروفي تلك هي التي دفعتني دونما شعور للبحث عمّا يقتل ألمي ويشغل فراغ قلبي وسرعان ما وجدته في علاء.. ولوأنه ظهر في غير هذه الظروف لما شغل من فكري إلا حيزاً ضيقاً لا يكاد يؤثر على تصرفاتي ولعاد إلى صديقه بالراية البيضاء.. كنت كمن كان ضالاً في صحراء هائماً على وجهه والعطش يسحب الحياة من بين عيونه، ثم فجأة..رأى غدير مياه ينساب عن بعد.. فهرول إليه بيديه وقدميه وراح يلهث ويلهث.. ويرتشف الأمل سكرات باردة، ويبعد عنه كل ما قد يحرمه هذا الأمل ويعيده إلى متاهة الظمأ.. ثم ليصدم مرغماً بحقيقة الواقع أن ذاك الغدير ما كان إلا سراباً لا أثر له.. ويعود خائب الرجاء لا يطول الموت فيخلّصه

Scanned by CamScanner

ولا يلقى الحياة لتنعشه..آه.. لقد صمَمْت حينها السمع عن كل الحقائق.. غضضت الطرف عن الوقائع.. لم أبال بكل إنذارات نفسي فما شعرته معه ما شعرته قط قبله، ولو أن شيئاً جميلاً أكنزه من تلك الظلمة.. فهو هذه الأحاسيس المفعمه البريئة التي أحسست بها والتي صوّرت لي الحياة حينما نريد أن نراها جميلة ، أراد هو أن يريني زيفها فرأيت عبره حقيقتها، وهذا معروف أسداه إليّ دون أن يدري.. رغم تيارات الحقد التي أعمت عينيه والتي حاول فيها الإساءة إليّ بكل معنى الكلمة لكنني لم أستطع كرهه.. بل إنني كلّما تذكرته وتذكرت الأحداث أسفت على ضلاله وكلما تراءت لي حقيقة كل تصرفاته.. لقد حاول استجراري على مهل كيلا أشعر بتغير في تصرفاتي، أغواني بالخروج معه إلى المطعم وللأسف فعلت.. وكانت هذه فاتحة مآربه.. تظاهر لي فيها بكل حب عذري أوقعني في شراكه ثم بدأ يطلب مني التنازلات.. تارة بمرافقته في القاعة.. وأخرى بإهدائي مساحيق التجميل.. حيناً برغبته في الاتصال بي أو اللقاء بي.. وحيناً بنظراته وكلماته المثيرة التي كانت حقاً تطرب مشاعري، لكنني عملت جاهدة أن أردع نفسي عن كل رذيلة، وأن أستبعد النار بتجنب مستصغر الشرر.. وأحمد الله تعالى أنني نجحت في ذلك ولولا أن حبي له جلّ وعلا أكبر من أيّ عاطفة دنيوية لكان من اليسير له أن يعبث بمشاعري الرقيقة حتى يتلفها ثم يرميني

Scanned by CamScanner

وإيّاها في سلة المهملات.. كم أنت لطيف بنا يا رب.. تهبنا حبك.. لتردعنا عن عصيانك..

خرجت صبا بعد أيام من المشفى وقد تحسنت حالها فأخذت لها معي طاقة من الورد، قبّلتها بحرارة فابتسمت لي بعمق.. تأملت وجهها الناعم.. استطعتِ أن تأخذي من أمي ما لم أظفر به إلا القليل.. مسحت على رأسها بيد حانية وقلت بأسى.. أنا آسفة صبا.. لقد قسوت عليك وكنت السبب في .. قاطعتني برفق.. لا تكملي.. ولا تعتذري.. بل أنت السبب في صحوتي، طوال أيام مكوثي في المشفى وأنا أتمعّن بكل ما جرى لي، وأدركت يقيناً أن الله تعالى قد لطف بي كل لطف حين أوقع جسدي بعجلات سيارة قبل أن يقع ببراثن شيطان.. أمل.. لو تعلمين ماذا كان ينوي لي..إنني أخجل من القول لك.. لكنه لا يفكر إلا بهواه وشهواته.. ما فكّر يوماً بأحاسيس ضحيّته..بل ولا يتنازل أن يلتفت إليها بعد أن يدوسها بقدمه.. إنه..إنه مثال الحيوانية..

- لا ترقيه وأمثاله إلى مستوى الحيوانية، فليس للحيوانات عقل كالذي يمتلكونه ومع ذلك وضعوه خلف ظهورهم ونهجوا نهج الحيوانية في مسلكهم فباتوا في مستوى أدنى.

- كم بت أكرهه..!.. أنا لم أكن أحبه..!.. ولكنني بهرت بأمواله وسيارته وأناقته، كنت أعلم أنه يلهو بي لكنني قلت

Scanned by CamScanner

لنفسي.. أفعل كما تفعل كل الفتيات.. ألهو به كما يلهو بي وأتمتع قليلاً بترفه المتخم، لم أكن أعلم أن لهوه ومجونه لا حدود له..!

نظرت إليها بإمعان.. صبا.. لأوّل مرة أراك تتحدثين بعمق.. وكأنك كبرت فجأة..!

قالت بابتسام.. فعلاً.. هكذا أشعر أيضاً.. أرغب أن أكون أختك حقاً.. أختك في كل شيء..! أمسكت يدها بحنان وقلت.. والآن يا صبا.. وقد أفرغت ما في جعبتك لي،وقد رأيت الصورة على حقيقتها.. أريدك أن تنسي كل ما مضى وتبدئي حياتك بعزم جديد وإيمان جديد، وضعي عبرة ما حصل في ذهنك لأيام قادمة، ولا تقولي: إن كل الفتيات يلهين.. ليست كل الفتيات لاهيات، كذلك ليس كل الفتية لاهين، بل إنك ترين أحياناً في الشباب التزاماً وقوة تنعش القلوب، وإننا نحطّ كثيراً من قدر الشباب وقدر الحياة أجمع إن أحطنا أطرها بمجال اللهو والمتعة بالغرائز فقط.. الحياة أسمى من ذلك بكثير.. صدقيني يا صبا..!

بدأت تتحسن صحتها تدريجيّاً وكذلك نفسيتها، وأصبح الكتاب المدرسي صديقها الحميم، وازداد تعلّقها بي وحبها لي، كانت تلك المحنة منعطفاً كبيراً في حياتها، وهي تنشيني دائماً حين تعزو أسباب صحوها ونضجها لي، رغم أنني طالما لمت نفسي

Scanned by CamScanner

على قسوتي الزائدة عليها، فقد وبّختها بأكثر مما وبخت نفسي حين وقعت في زللها نفسه وأنا الأكبر والأكثر وعياً..!! أتساءل بعجب.. لم يختلق المرء لنفسه أعذاراً لا يختلقها لغيره..؟ ولِمَ يرتئي في غيره عيوباً لا يراها في نفسه..؟ لِمَ يكون دائماً هو المدان وغيره الدائن..؟.. هو المظلوم وغيره الظالم..؟ هو المحق وغيره المحقوق...؟.. ليت كل واحد فينا يحاسب نفسه تماماً كما يحاسب غيره، وميزان العدل ذاته، الميزان الذي ينصبه حين يكون محقاً ينصبه حين يكون محقوقاً.. لا بد أن الحياة حينها ستغدو مفعمه بالإنسانية.. مكتظة بالقلوب النقية والنوايا الصافية لكل الورى.. وستمسي القناعة تاج كل إنسان.. والمحبة والتسامح شعار كل امرئ..آه.. كم يحلم المرء فينا..! وقلّما تتحقق الأحلام..!

Scanned by CamScanner

- ١٦ -

.. كانت حفلة جميلة.. العروس بأبهى زينتها.. العيون تحملق فيها والكلّ يزغردن لها..أهازيج النسوة كثيرة ومتنوّعة.. بريئة وطريفة..يتوارثنها جيلاً بعد جيل.. ويجبلنها بحفنة من التراث الشعبي الأصيل..والعروس تصغي إليهن وهي في قمّة النشوة والسعادة، لقد قرأت في عينيّ ابنة خالتي كل أحلام المستقبل تبدأ من هذه الخطوة..من هذا الخاتم الصغير،حتى أنني غبطها ، وتمنيت في أعماقي لو مُنحت حظوة من الأيام كالتي مُنحت لها..أُمسك يدي بيده نعتصر الحب والشوق من بينهما.. نخط معاً طريق حياة واحدة.. نعبّده بأسهل ما يكون .. ونلوّنه كيفما نشاء.. أيا تراك من تكون..؟ يامن سأمضي معه ربيع أيامي وأشركه كل حياتي..؟ زوجة أنا لمن..؟ وأم لأطفال من..؟ من سيلعقني رحيق العسل بطرف إصبعه..؟ من سيعبث بخصائل شعري..؟ من سيمنن لي دثار نومي..؟ أتراني سأوفق في حياتي معه..؟ هل سنملك زمام التفاهم في حياتنا..؟ هل سنتوّج بالحب أيامنا..؟ هل سأحقق لأولادي ما فشل والداي بتحقيقه لي..؟ هل سأنجح في إحاطتهم بجو أسري كامل..؟

.. إنها غاية أحلامي..أن أغدق على أولادي كل ما حرمني الزمن منه..

Scanned by CamScanner

.. كم أسعدتني نظرات النسوة إليّ وهنّ يرين فيّ شباباً وعلماً، ويهجن والدتي بغبطتهنّ لي، وألسنتهنّ لا تفتأ تدعو لي بحظ سعيد وفرح قريب، وأنا أقول في أعماقي.. آمين..! مهما تصعّدت الفتاة في سلّم العلم ودرجاته يبقى حنينها الأول إلى موطن غريزتها.. إلى تحقيق وجودها والشعور بأنوثتها وهي تُطلب فتكون زوجة وأماً.. ذاك الوسام الذي يزيد في علمها شرفاً، وتألقاً، ووهجاً..ذاك الوسام الذي يرفعها إلى رتبة الأم الواعية الفاضلة، وأسأل الله من كل قلبي أن أصل إلى هذه الرتبة التي تهون من بعدها الصعاب، ويُنسى بها كل نصب وتعب..!

عدت إلى المنزل وقد انفرجت أساريري، فقد نسيت الأفراح منذ زمن، فوجئت بوجوه واجمة وشفاه مكفهرّة..! كان إخوتي وأمهم جالسين وكأنّ على رؤوسهم الطير.. سألت ماذا هنالك..؟ لاذوا بالصمت.

.. ماذا هنالك..؟.. خالتي..محمد.. رغد.. رهف.. ألجمتم لساني بوجومكم..!.. ماذا جرى..؟ لم يسعفني أحد منهم بجواب..ثم تساءلت.. أين أبي..؟.. من المفروض أن يكون هنا منذ ساعة..؟ ثم صحت بغضب..تكلّموا..!

قال محمد وهو يتأتئ..اتصل منذ قليل من.. المخفر..وقال:إن..الشرطة قبضت عليه بتهمة الاختلاس، ثم صمت هنيهة وسط ذهولي وأردف..أوصانا أن نوكّل له محامياً..

Scanned by CamScanner

لم نعد نعرف.. ماذا نتصرف..؟.. لقد.. شلّت حركتنا.. وخارت قوانا..!!

قالت زوجة أبي وهي تبكي.. لقد بعثت أخي وائل إلى المخفر ليستفهم حقيقة الأمر، وقال: إنه لن يتأخر..مستحيل.. مستحيل أن يسرق أبوكم..!.. من أين جاءتنا هذه المصيبة..؟ جلست مهدودة الأعصاب، ووسط صخب إفكاري تداعى لي صوت الشيخ عبد القادر في القرية ..السعادة هي لحظة استراحة من الألم..!.. رباه..!

قُرع الجرس فهرولنا جميعاً لنفتح الباب، دخل السيد وائل لاهثاً من صعود الدرج، قال بسرعة..السلام عليكم..قالوا: إنه متهم بسرقة مليوني ليرة من حساب الشركة بشهادة أوراق ومستندات، وبوصفه المشرف العام على الصادر والوارد من الشركة وإليها.. وضعه صعب ومحرج.. هكذا قال لي الضابط وأوصاني بتوكيل محامٍ ناجح، سيحال إلى النيابة العامة بعد التحقيق مع عدد من الموظفين في الشركة والمسؤولين عن إدارة أعمالها.

سألت رغد بحرقة.. وهل سيدخل أبي السجن..؟

راحت زوجة أبي تلطم وجهها وتبكي مصابها، ولم يلبث إخوتي أيضاً أن أجهشوا في البكاء، وأنا حتى هذه اللحظة مذهولة

Scanned by CamScanner

لا أصدق كل ما يجري وكأنه نكتة، أو لعلّه أحد ألاعيب الكاميرا الخفية، تبادر إلى ذهني أن أسأل العون من زوج أمي علّه يدفع المبلغ المترتّب على والدي كدين نسدده له بأقساط شهرية، رحّب الجميع بالفكرة وأوصلني السيد وائل بسيارته المتواضعة لعند أمي، صعدت إليها وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً، أما هو فقد انتظرني داخل السيارة، استغربت أمي مجيئي إليها وقد كنت قبل قليل معها في الحفلة، حكيت لها ما جرى ورجوتها أن تستنجد لنا بزوجها الذي كان جالساً في مكتبه، ذهبت إليه وأغلقت الباب وقلبي أحرّ من الجمر، لكنه احترق أكثر بلسع كلماته التي صدمتني به أكثر مما كنت مصدومة وجرحتني من الأعماق، قال لها مما سمعته من بين صراخه وشتمه.. وما أدراني أنه لم يسرق المبلغ؟... حتى وإن لم يسرقه.. ألا يوجد غيري من يدفعه عنه..؟.. أتريدين أن يقولوا لقد أخرج طليق زوجته من السجن..؟ تريدين أن يضحك الناس عليّ..!.. ثم لا تنسي أن صاحب شركته يتعامل مع كل أصدقائي .. وبيننا مصالح مشتركة.. لست مستعداً للقضاء على مركزي وأموالي..!!

انسحبت من بيته أجرُّ أذيال الخيبة والندامة.. وأرثي الرحمة التي ضاعت من بين البشر. كم كان موقفي مخزياً أمام السيد وائل الذي ترجم تعابير وجهي اللائذ بالصمت واكتفى بقوله: وكّلي أمرك لله تعالى وهو يتولّى هذه المحنة !

Scanned by CamScanner

قلت له: خذني إلى بيت صديقتي علا. أخوها يدرس الحقوق ولا بد أن يعيننا في الأمر.

دخلت إليها لا يعذرني في هذا الوقت المتأخر إلا لهيب قلبي، حكيت لها ولغيث كل ما جرى محاولةً لمّ شتات فكري، فتضايقا لمحنتي وقال غيث: لا تأسفي لموقف زوج أمك، فإعانته لكم لم تكن لتحلّ المشكلة من جذورها، حتى وإن دفع المبلغ سيبقى حق المدّعي والحق العام، وهما يلزمان والدك بدخول السجن لمدة ما لم تثبت براءته، ولا تنسي أن عدم إثبات براءته هو الضرر الأكبر لوالدك كمواطن شريف أولاً، وكمحاسب يعمل في مجال مهنته ثانياً، فهو سيطرد حتماً من مكان عمله ولن تقبله أيّ شركة في العمل عندها لاتهامه بالاختلاس، حتى وإن قبلت به موظفاً لديها وقد غضّت النظر فهي ستستغلّ وضعه وعوزه وتعطيه من الراتب مالا يتوافق البتة مع إمكاناته وجهده، فالمطلوب ليس تأمين المبلغ المسروق، بل الأهم من ذلك إثبات براءة والدك.. أنا آسف أمل إن كنت صريحاً بألفاظي ولكن يتحتّم عليّ أن أطلعك على حقيقة الوضع كله.. في كل الأحوال..يتطلب تأمين مبلغ جيد من المال تحسباً لما قد يجري . قالت علا بكل ودّ.. أموالي كلها تحت تصرفك.. اطلبيها متى شئت.

وضعت رأسي بين كفّي وأنا أقول.. أكاد أجن.. حتى الآن لا أصدق ما يجري.. أوَتراني أحلم..؟.. أهذي..؟!

Scanned by CamScanner

قال غيث: استعيني با لله..!.. على كل حال.. كان بـودّي أن نطلّع اليوم على ملابسات القضية لكن الوقـت تـأخر كمـا ترين، سأمرّ لعندك غداً صباحاً إن شـاء ا لله ونذهـب معاًإلى محـام قدير كان أسـتاذي في إحـدى المـواد للسـنة الثالثـة وقـد أشـاد بجهـدي وفطنتي..لابد أنه سـيعيننا وسـيتقبل توكيلـه بقضيتنـا، اذهـبي الآن وأريحي أعصابك وأعصاب أسرتك، وتفاءلي خيراً لتجديه.

.. لم أسـتطع النـوم تلـك الليلـة.. أفكـــار تـــأخذني وأخـــرى تحاصرني وأنا عاجزة عن جمع شعثها أو الإحاطة ببعثرثها..تداعت لي كلمات زوجة أبي.. مستحيل أن يسرق أبوك.. من أين جاءتنا هذه المصيبة..؟ وسرعان ما تذكرت بعدهـا ذلـك الحديـث الـذي دار بيني وبين أبي في إحدى الأمسيات حين قـال لي.. عملـي هـو واسطتي، ولو لم يكن خاله واثقاً مني لما أبقاني عنده خمسـة عشـر عاماً.. تساءلت بعجـب عـن السـبب الـذي يدفـع محسـن الأحمـد لاتهام والدي بالسرقة بعد خمسة عشر عامـاً مـن الأمانـة والثقـة.. وبرقت في خاطري كلمات علاء لي هل تعلمين أن محسن الأحمـد خـالي..؟ وحـين مازحتـه وقلـت لـه قـل لخـالك أن يكـرم مثـوى والدي..قال بفخر.. بالطبع سأفعل فخـالي لا يـردّ لي طلبـاً مهمـا كان.. حين تذكرت كل هذا واستطعت ربـط الخيـوط في مخيلـتي بصعوبة كان أذان الفجر قد بدأ يصدح في الأجواء وراح الصـدى يكرر لي بكل عمق.. الله أكبر..!.. الله أكبر..!

Scanned by CamScanner

للمرة الأولى أشعر بعمق هذا النداء.. للمرة الأولى أدخل على الله تعالى بهذا النداء وقد خبأت وجهي بين كفي وانهمرت دموعي مدراراً..يا أكبر من كل شيء..يا ظاهر كل شيء وباطن كل شيء.. يا ناصر المظلومين وحسيب الظالمين..يا من تعلم بخفايا النفوس وما تكنّه الصدور.. يا رب.. قد زللت عن دربك مرة.. ومازلت أدفع كفارة زللي حتى هذه اللحظة.. بل وربما الآتي أعظم.. غير أن عافيتك أوسع لي يا رب..يا رب لو اجتمعت الأمة أن تضرّني بشيء لم تضرّني إلا بشيء قد كتبته عليّ.. لكنني واثقة أنك لا تريد لي إلا كل خير، وأن هذا المصاب ما هو إلا ابتلاء من لدنك لأصبر أولا أصبر..لكنني صابرة يا رب.. صابرة بما منحتني ووهبتني من إيمان بك ويقين برحمتك.. رحمتك التي لو عرفها كل البشر لتراحموا فيما بينهم.. لكنهم يعرفون ويجهلون .. وعن هديك يعرضون.. مالي بهم يا رب وقد شغلت بحبك عن كل ما سواك؟!..إلهي.. لن أهلِك وأنت رجائي.. لن أسقم وأنت دوائي.. لن أيأس وأنت عزائي..!!

غفوت بعد صلاة الفجر، وقلبي مطمئن بالإيمان، وقد احتسبت أمري عند الله وأنا على يقين أنه تعالى نعم الوكيل، صحوت بعدها على صوت رهف توقظني..هناك شاب ينتظرك على الباب.. اسمه غيث.

Scanned by CamScanner

قفزت من سريري..كم الساعة الآن..؟ ياه.. إنها التاسعة.. لِمَ لم يوقظني أحد..؟ أدخليه إلى الغرفة ريثما أرتدي ملابسي، سوف نذهب إلى المحامي من أجل والدك، أعدّي له فنجاناً من القهوة حالاً..!

دخلت إلى الغرفة والابتسامة تملأ وجهي.. أهلاً غيث.. صباح الخير.. أنا جاهزة.

نظر إليّ بتعجّب وقال: تنامين حتى التاسعة.. وتبتسمين منذ الصباح وكأن شيئاً لم يكن لقد ملأت جيبي بالمناديل الورقية لتجفيف دموعك..من رآك البارحة لا يراك اليوم..! ضحكت وقلت.. إن كان في حوزتك جوهرة ثمينة وقد صنتها في مكان أمين لا تصله يد إنسان ثم جاء أحدهم وقال: إنك أضعتها.. هل تصدّقه..؟

قال: لا.

- وكذلك الأمانة لدى والدي.. إنها أثمن مالديه وهو يحفظها في أضمن مكان.. في قلبه.. ومحال أن يصل أحد إلى قلبه، سيأتي يوم وتظهر فيه هذه الحقيقة.

- ما هذه الدرر يا أمل..؟.. أراك متفائلة على غير عادتك..!

- إنه الإيمان با لله تعالى.. كلّما لزمته كلما زادك ثقة ويقيناً وقوة.. ولقد تفكّرت ليلة أمس بكل ما جرى وتوصّلت إلى رسم خيوط المؤامرة.

Scanned by CamScanner

- إذن تشكين في وجود مؤامرة، لقد توقعت ذلك وتوقعت أيضاً حدوث لغو أو سهو في الحسابات.

- توقعك الثاني غير وارد، لأن الحسابات دقيقة جداً وتكرر لأكثر من مرة.

- ما المؤامرة إذن..؟

- أطلعك عليها عند الخروج من المنزل.

- على فكرة.. بيتكم جميل..!

- متواضع بأثاثه..!

- وغنيٌّ بناسه..!!

حين خرجنا من المنزل سألني بلهفة عن المؤامرة فآثرت ألاّ أحكي له منها إلا الجزء اليسير وقد طلبت منه أن يحفظ السر ففعل، قلت له: علمت من أختي صبا أن هناك شاباً من كليتي يتردد على مدرستها، فحذّرتها منه لدناءته، لكنني مررت ذات يوم على المدرسة لأطمئن على وضعها الدراسي فعلمت من صديقتها أنها برفقته في أحد المطاعم، جنّ جنوني وذهبت إلى هناك وصفعته كفاً قوياً وشددت صبا من يدها، ولعلّ علا أخبرتك عن الحادث الذي أصاب صبا، كان ذلك بعد توبيخي وزجري إيّاها.. هذا الشاب اسمه علاء راغب وهو ابن أخت مدير

Scanned by CamScanner

الشركة، وكما سمعت عنه فهو لا يرفض له طلباً.. كنت واثقة أنني سأجني من وراء هذا الكف المتاعب، لكنني لم أستطع تمالك أعصابي.

- فهمت الآن..الآن نستطيع التصرّف على بيّنة من الأمر، ومهم جداً أن نوضح للمحامي هذه النقطة علّها تكون المؤشر لإثبات براءة والدك.

قلت بسرعة..لا..أرجوك يا غيث.. لا أريد أن يعرف أحد بالقصة.

- ولكن.. كيف سيساعد المحامي والدك..؟

- سيجد أكثر من طريقة غير إفشاء هذا السرّ أمام الشرطة والشهود، سأسبب الضرر لأختي وقد وعدتها أن أكتم السر، ثم إن المحكمة قد تعتبرها قصة سخيفة ولا تشكل دافعاً لاتهام كهذا..

- فعلاً.. حتى هذه القصة تحتاج إلى ثوابت وأدلّة.

أخذنا المحامي معنا وذهبنا لزيارة والدي، ارتميت بين ذراعيه وصرت أبكي، برقت عيناه من الدمع وهو يقول..أترين يا أمل..بعد هذه الشيبة أُتهم بالسرقة وأدخل السجن..

- لا يا أبي.. لست بسارق.. ولن يطول مكوثك في السجن صدقني.. أعدك أنك لن تبقى هنا سوى بضعة أيام ونثبت براءتك.. بضعة أيام.. أعدك..!

Scanned by CamScanner

قال المحامي.. دعانا الآن من العواطف ولندرس الأمر بجديّة.. استرح يا سيّد..أريد أن أسألك بعض الأسئلة وليتك تجيبني عنها بكل وضوح وتفصيل.

جلست إلى جانب غيث وأنا أذرف الدمع وأتمتم.. أنا السبب..أنا السبب.

قال لي بصوت خافت.. هدّئي من روعك.. أخشى أن يسمعك أحد.

كان والدي واجماً وكأنه لم يستوعب حتى الآن ما جرى.. كان ضائعاً بين ثقته بنفسه وأمانته وبين هذه الرجفة التي زلزلت الأرض من تحته، حاول أن يشرح للمحامي كيف أنه عمل عنده في الشركة من بداياتها منذ خمسة عشر عاماً، ومنذ أن أدخل الحاسوب إلى الشركة أجرى دورة تعليمية في الحاسوب واستعماله وصيانته وحافظ على كرسيه كمحاسب، وعندما اتسعت الشركة وتعددت فروعها عُيّن ثلاثةُ محاسبين للشركة، كل في فرعه، وهو المشرف العام الذي يدوّن كل الحسابات وينظم كل صادر وارد على الحاسوب، وهو أمين سرّ هذا الحاسوب، وهناك أرقام لا يعلمها إلا هو ومدير الشركة محسن الأحمد نفسه.

- وما سرّ المليوني ليرة..؟

- صدقني لا أدري.. طول ليلة أمس وأنا أحاول أن أتذكّر أيّ خلل دخل إلى الحاسوب ولكن دون جدوى.

Scanned by CamScanner

- هل تشكّ في اختلاس المليوني ليرة من قبل أحد محاسبي فروع الشركة..؟

-..لا.. مستحل..لقد..ربيّتهم على يديّ هاتين.. جاءني كل واحد منهم وهو خرّيج جامعي جديد، لم أبخل عليهم يوماً بمعونة، كنت لهم أباً قبل أن أكون زميلاً.

- طيب.. ومدير الشركة.. ما حدود علاقتك به..؟

- لا تتعدى نطاق العمل، لكنه واثق بي،عملت عنده خمسة عشر عاماً دون أن يشكو مني مرة.. تنهدتُ بحسرة.. يا طيب القلب يا أبي..!

أطرق رأسه في الأرض..ثم رفع ناظريه إلى السقف..تأوّه بعمق.. صحيح أنهم يجيدون جميعاً أساليب الحيل والخداع، ولكنني لم أسئ إليه مرة، وليس له أي مصلحة في طردي من العمل واتهامي بهذا المبلغ..إنه ليس بحاجة لهذا المبلغ، لاأدري من الذي وشى عني هذه الوشاية الكاذبة.. وكيف صدّقها هو بهذه السهولة بعد خمسة عشر عاماً.. خمسة عشر عاماً يا أستاذ..لقد.. لقد جرحني في قلبي..أمل..أمل..ألم تقولي إنه خال زميلك.. قولي له..قولي لزميلك: إنني شريف.. ومخلص.. قولي له أن يذكّر خاله بالساعات الطوال التي كنت أمضيها وراء الحاسوب خلال الجرد السنوي.

Scanned by CamScanner

وراح جاهداً يخفي دموعه بأصابع كفه.. لقد حرق نحيبه قلبي.. لو أنه يعلم أن زميلي هذا هو وراء كل هذه المشاكل، وأنني السبب بحماقتي في كل ما جرى..وطئت أرضاً لم تألفها قدمي.. عاشرت بشراً ليسوا من طينتي.. أمنت لهم قبل أن أجرّبهم.. وها أنذا اليوم ألدغ بسياط غدرهم.

عدت إلى المنزل مشوشة التفكير مرهقة الجسد لأرى عمتيّ تنتظراني منذ الصباح، سألتاني بلهفة عمّا جرى مع المحامي، قلت وأنا أسلّم جسدي للأريكة.. لم يتضح شيء بعد.. هناك تحقيق.. ودراسة ملفات.. وأبي مضطهد لايستطيع فعل أيّ شيء.

طيّبتا خاطري بكلمات حنونة..قالت عمتي الكبرى: لابد أنكم ستحتاجون لمبالغ كبيرة، لقد أعطيت زوجة أبيك مبلغاً من المال، وإن احتاج الأمر لكفالة أو ما شابه فسأبيع ما لديّ من حليّ ذهبية.. هذا كل ما أقدر عليه.

أما عمتي هدى فقد أطرقت رأسها خجلة وقالت بأسى.. أوَ عجزت أن أقف بجانب أخي الوحيد في موقف كهذا.. تباً للفقر..!

- لا يا عمتي.. نحن لا نطالبك بشيء ، تكفي لوعتك هذه عليه، ما رأيكما أن تزورانه مع زوجته..؟ لابد أن يشعر بشيء من الأمان برؤيتكنّ، سأحاول أن أتصل بالمحامي ليؤمن لكنّ الزيارة.

Scanned by CamScanner

.. كنت كلما رأيت فرداً جديداً يلتاع على والدي ألوم نفسي على لوعته وأمقتها كل المقت وأتمنى لو ألحق بها كل أنواع التعذيب رغم أنه لا عذاب أمضّ من الظلم..!

Scanned by CamScanner

- ١٧ -

حين حكيت لعلا ما جرى بالأمس استأصلت من كل الحديث ما وافق هواها وقالت حالاً..

إذن لم تحكي لغيث ما جرى بينك وبين علاء، وهو فعل كل ما فعل فقط لأنه رافق أختك فصفعته..! أنت تخططين لما هو قادم.. يا محتالة..!

ابتسمت وقلت.. ألم تقولي ذات يوم الصمت أبلغ من الكلام، وأنا لم أشأ أن أثرثر كثيراً فاختصرت القصة وحكيت الموجز، أما ما تبقى فهي أحداث تافهة لا قيمة لها..!

- والله إن غيثاً الآن في أوج سعادته لأن محنتك هذه زادتك قرباً منه.. مصائب قوم عند قوم فوائد..!

.. شاهدنا على بعد أمتار منا علاء مع مجموعة فتيات وهو يجهر بضحكة رنّانة، فاغتاظت علا وقالت لي: أريد أن أسأله كيف تجرّأ على هذه الفعلة الشنيعة..أريد أن أتأكد أنه فعلاً وراء ما حدث.

فقلت على عجل: كفاك تهوّراً..ألم تري ماذا فعل بنا انتقامك؟ إياك والعجلة.. ثم إنني واثقة أنه اليد الخفية في المؤامرة، وإلاّ.. فلم لم تحدث المشكلة إلا بعد أيام من صفعي له..!

Scanned by CamScanner

فوجئنا به يقترب نحونا مذ رآنا، حاولت الإمساك بيد علا لتعرض عنه، لكنها أمسكتني بقوة وقالت: .. لا تكوني جبانة.. دعينا نسمع ما سيتشدّق به.

- مرحباً..! لم ترد إحدانا عليه فتابع حديثه منفرداً.. كيف حال والدك يا أمل..؟ ألا يشعر بالبرد في السجن..؟.. الطقس بارد هذه الأيام.. خذي له بطانية من المنزل وبعض المعلّبات، وخذي أيضاً إبرة ومجموعة من الخرز ليتسلّى بها لأن أيامه في السجن طويلة..!!

وراح يقهقه ساخراً.

قلت له بحنق وغيظ: لولا أنني أخشى على يدي التلوّث ثانية لصفعتك كفاً آخر ولن أخشاك.. فالله معي.. والله أكبر منك..!

وقالت علا غاضبة.. كيف أغويت خالك على الإساءة لموظف عنده منذ خمسة عشر عاماً كيف طاوعك قلبك.. كيف طاوعه قلبه..؟.. كيف..؟

ضحك وحرّك أصابعه وهو يقول بنذالة..المال.. المال سيّد الأحكام.. هددته بإنهاء مصالحه مع والدي الذي بدأ يوكلني معظم أعماله..الأمر ليس بهذه الصعوبة..! ثم نظر إليّ شامتاً وقال.. علّك تتلقين درساً تتعلمين فيه أن تطاولك على من هو أرفع منك مستوى يسبب لك عواقب وخيمة.. ليس كل الناس

Scanned by CamScanner

حاولت تهدئة أعصابي وقلت.. وإن قلت لك:إن والدي سيخرج من السجن وسيحل خالك محلّه..! ضحك وقال.. لن يخرج..!

- سيخرج..!

قال بثقة: لن يخرج..!

فقلت بثقة أكبر: سيخرج..بإذن الله سيخرج، صحيح أنني لا أملك حتى الآن أيّ دليل يثبت براءته لكن الله تعالى سيجعل بعد العسر يسراً، وسيفي بوعده في تولّي المؤمنين وإغاثتهم.. والله حق.. وبكلماته يحق الحق..الله أكبر منك يا علاء..عِ هذه الكلمة..عِها.. سيخرج يا علاء وقد آتي بنفسي لأبشرّك بذلك..!

ومضينا في طريقنا وتركناه يهزأ بكلماتي ولا يلقي لها بالاً.

عدت إلى زيارة والدي بعد يومين برفقة أخي محمد، كان الإعياء واضحاً عليه وكأن ذاكرته بما تعجّ من أرقام وخانات تطحن ما تبقى من صبره. سألنا.. من أين تصرفون على المنزل..؟

قال محمد: أمي أخرجت مبلغاً كنتما قد ادّخرتمانه معاً.

وقلت: لا تقلق علينا يا أبي..عمتي أيضاً لا تقصّر معنا.

- أفكر مليّاً في بيع بيت جدتك رحمها الله.

Scanned by CamScanner

شهقت سريعاً ودمعت عيناي.. لا يا أبي.. أرجوك..

- الوضع محرج يا بنتي.. الديون ستثقل كاهلنا، والمنزل بات موحشاً لا أحد يفيد منه وعمتك هدى في فاقة وقد لمّحت لي مرة ببيع حصتها من المنزل.

رحت أهزّ رأسي بالنفي وأقول..أبي.. أبي.. بحق معزتي عندك.. وبحق معزة جدتي رحمها الله..لا تفرّط بالمنزل.. إنها محنة وتنقضي بإذن الله، وأسأل الله تعالى أن تثبت براءتك سريعاً.. وتبقى أتعاب المحامي..يعني..نحاول تدبير الأمر.

خشيت على جدران صادقتني أربعة عشر عاماً أن تضيع بين ركام أحجار..أو يسكنها بشر ليسوا ببشر.. ولن يكونوا يوماً ما مثل جدتي التي عبقت رائحتها في كل أرجاء هذا المنزل..لقد بات بالنسبة إلي روح جدتي..روح الإنسانية.. روح الصفاء والنقاء.. ولن أفرّط بهذه الروح الخالدة يوماً..!

عدت إلى المنزل لأرى عمتيّ هناك، وكذلك السيد وائل،كانوا يريدون الاطمئنان على مستجدّات القضية ، لم يكن هناك أيّ أمل أو مستمسك لإخراجه من السجن سوى راحة الضمير لدى الجميع بيقين براءته، ما لبثت أن جلست حتى دخل علينا غيث فقلنا جميعاً بصوت واحد..هل من جديد..؟

Scanned by CamScanner

قال بهدوء.. لنستبشر خيراً.. ها قد عدت لتوّي من عند المحامي..الأمور تحتاج إلى وقت، وهناك حتى الآن شعاع أمل نتمنى أن يكون طريقنا إلى إثبات البراءة.

سألت زوجة أبي..كيف..؟

- لدى المحكمة ملفّات ومستندات ورقية من فروع الشركة عن حساباتها.. يعني حاجاتها من النقود للاستيراد.. لتأمين المواد الخام.. ومخزونها من المال ومما يدرّه عليها الإنتاج..وأمور اقتصادية أخرى لا نفقه فيها، المهم أن عمل زوجك محصور في الحاسوب..

إنه محاسب يعمل على الحاسوب.

سألته.. لكنه يتعامل مع تلك الملفّات أيضاً..؟

- مجرّد نقل وتدوين منها إلى الحاسوب، يقوم بتنظيم الأرقام المدوّنة في الملفات في إحصائيات وجداول، أي إنه غير مسؤول عمّا يرد في الملّفات من أرقام ومبالغ فهي مدروسة من قبل محاسبي الفروع وكل المبالغ المترتبة على الشركة من صادر أو وارد هي في ذمّتهم هم.

- إذن كيف اتهم أبي ذاته بسرقة المبلغ؟

- يدّعي محسن الأحمد أن الشركة بدأت تشكو من نقص تدريجيّ في أموالها، وقد عزا سببه إلى أن والدك يقوم بإضافة بعض

Scanned by CamScanner

المبالغ إلى الحاسوب من الشركة وهي تدخل جيبه الخاص، لأن ما ورد في الملّفات لا يؤكد أيّ نقص من الذي عانته الشركة بعد قيامها بالجرد.

قال السيد وائل...ولكن.. كما أعتقد.. فالمستندات التي يعتمد عليها محسن الأحمد لا قيمة لها دون مقارنتها بما جاء في الحاسوب.

قلت بسرعة .. صحيح..!.. ألا تستطيع المحكمة أن تقارن بين ما دوّنه والدي في الحاسوب وبين ما جاء في الملفّات.

قال غيث.. أعتقد أن هذا ما ستقوم به المحكمة على عجل، ولعلّها تصدر قرارها النهائي بعد غدٍ إن شاء الله.. هكذا قال لي المحامي.

قلت.. إذن سأذهب معك بعد غدٍ إلى هناك.

قال السيد وائل.. وأنا أيضاً.

وفي اليوم الموعود كنا هناك نحن الثلاثة برفقة المحامي نستبشر صدور القرار بتبرئة والدي، لكن محسن الأحمد كان أذكى مما تصوّرنا، فكم كانت دهشتنا عظيمة حين ورد في الحاسوب أرقام من المبالغ التي دفعتها الشركة لدعمها بالمواد الأولية لزيادة الإنتاج دون أن يصل منها شيء.. هذه الأرقام كان مجموعها النهائي مليوني ليرة سورية.

صرخ والدي بألم.. لا تصدقوه.. أنا لم أخزّن هذه المبالغ.. أنا لم أسرق شيئاً.. صدقوني..! وسرعان ما طلب المحامي مهلة

Scanned by CamScanner

للإتيان بأدلة أخرى قبل إصدار حكم المحكمة، انفرد بوالدي ساعة ثم خرج إلينا وهو يقول: لقد تمعّن جيداً فيما خزّن في الحاسوب وأكدّ لي أنها معلومات مزوّرة..!

قلت بغرابة.. أيعقل أن يخزنوا كل هذه المعلومات والأرقام للتزوير..؟.. كم استغرق ذلك من الوقت..؟

ردّ المحامي..المال يذلل حتى الوقت.. وكل الجهد يذوي عند ذوي النفوس الضعيفة حين يرون رزم الأوراق النقدية.. ثم استطرد.. يقول والدك: إن هناك في غرفة محسن الأحمد مدير الشركة درجاً خاصاً لأقراص الحاسوب حول كل ما يتعلّق بالشركة من تاريخ نشأتها وحتى اللحظة الراهنة ومن بينها قرص الحسابات.. في الواقع يا جماعة..هذا القرص الذي يتكلّم عنه هو دليل براءته الوحيد حتى الآن.وهو الورقة الرابحة الوحيدة التي تبقت لنا.. نتابع حديثنا لاحقاً.. إلى اللقاء.

وذهب كل منا يضرب كفاً بكف، قال غيث: يجب أن نصل إلى داخل الشركة وإلى غرفة المدير بالذات..ولكن .. كيف..؟

قال السيد وائل: إن ابن محسن الأحمد كان زميل دراستي في المرحلة الإعدادية ثم فرّقت بيننا الأيام و لم أره إلى الآن. فقط أسمع أخباره عن بعد.. لا أدري إن كان هذا الأمر يفيدنا في شيء..!

سأل غيث.. ماذا تذكر عن ابنه هذا..؟.. ما مواصفاته..؟..نقاط ضعفه..!

Scanned by CamScanner

- ما أذكره جيداً أنه كان شديد البذخ والإسراف، أما الآن فلا أعلم عنه شيئاً سوى أنه مازال حراً وقد بدأ يتسلّم أعمال والده في الشركة.. يقال: إنه زير نساء.. هكذا سمعت..!

- حسنٌ.. شاب كهذا.. ماذا يمكن أن تكون نقطة ضعفه..؟

- أكيد ليست في المال.. فلديه منه الشيء الكثير.

- إذن هي في النساء- لقد لمعت في عينيّ خطة سأحكم حبكها وآتيكم بمجرياتها مساء الغد إن شاء الله.. إلى اللقاء.

كم انتعشت حين رأيت غيثاً والسيد وائل يقفان معي في هذه المحنة بكل شهامة، لقد طيّبا خاطري، إن الدنيا مازالت بخير، وإنه مازال فيها أناس طيبون يحبون الخير لكل الناس ويسعون إلى فعل الخير ما استطاعوا..!

- ١٨ -

.. كنت أعلم أن أمي قد خشيت زعلي منها، ولقد أُعلمت أنها اتصلت بي لأكثر من مرة و لم تجدني فقد شغلتُ في الآونة الأخيرة كثيراً، ذهبت إليها لأطيّب خاطرها وأخفف عنها وطأة خجلها.. راحت تضع لي كل المبررات.. و الله يا بنتي لقد عملت جهدي معه، لقد قلت له ليس من أجله بل من أجل ابنتي.. ولكن.. يبدو أنه متضايق منك منذ أن تنازلت عن الادعاء على السائق الذي صدم صبا بسيارته، تذرّع لي بمئة حجة. قلت لها: سمعت ما قال..!

فقالت خجلة.. لقد عجزت أن أهدّئ من ثورته أو أخفف من ارتفاع صوته، وكم شعرت بالحرج والضيق حين خرجت من الغرفة و لم أجدك.. و الله يا بنتي..أنا عيناي لك.. أعلم أنك في محنة صعبة.. ولكن..

وضعت يدي على فمها وقلت بأسى: أرجوك يا أمي.. كفاك حديثاً.. كلماتك تحزّ فيّ أكثر من المحنة نفسها، لعلّ أصعب ما في الوجود هو التفريق بين الأم وولدها مهما تعددت أشكال هذا التفريق وظروفه، المشكلة يا أمي أن وضعنا الماديّ الآن محرج جداً، أنا في الجامعة وإخوتي في المدرسة وطلبات المنزل لا تتوقف،

Scanned by CamScanner

ومدخرات المنزل من النقود توشك أن تنفد.. حتى عندما سيخرج والدي من السجن إن شاء الله فلا بد أنه سيقضي مدة ريثما يجد عملاً في شركة أخرى، نحن بحاجة إلى دخل مادي بأسرع وقت ليتني أستطيع فعل شيء الاستدانة من الأقارب أمر لاينتهي، والدين أرق في الليل وهمّ في النهار.. ماذا أفعل يا أمي..؟

قالت بابتسام.. عندي لك حل رائع.. ابنة جارتي خولة في الصف الثالث الإعدادي، تقول أمها إن وضع ابنتها الدراسي لا يعجبها وهي تبحث عمّن يقوّيها في مادة اللغة العربية، ما رأيك أن تكفّلي تعليمها..؟ وأنا سأتحدث مع جارتي كي تكرمك بالأجرة..؟ أليست فكرتي صائبة..؟

- حل جيد.. ولكن هل سيكفي هذا المبلغ لإعالة أسرة كاملة..؟

- نطلب منها أن تدفع لك معظم المبلغ سلفاً وبقيته في نهاية دورتها التعليمية وأنا أكفلك لها..!

- لم يتبقَ لامتحان الشهادة الإعدادية سوى ثلاثة أشهر تقريباً، نترك شهراً للمراجعة.. يعني يبقى شهران.. إنها دورة مكثفّة وتتطلّب مني جهداً إضافياً إلى جانب دراستي، هذا غير أن المبلغ قد لا يكفي لأكثر من شهر..!

وضعت يدها على كتفي وهي تقول: لا تفكّري بما قدّره الله لك من رزق، عليك أن تسعي لطلب هذا الرزق المقسوم لك،

Scanned by CamScanner

كما أنك لست بأكرم من الله تعالى، قد يخرج والدك من أزمته سريعاً ويجد عملاً أفضل من سابقه، أنسيت أن والدك خريج جامعي منذ أكثر من عشرين عاماً وخبرته في مجال عمله عميقة وكبيرة، توكلي على الله تعالى وظني به الظن الحسن، متى تريدين أن نفاتح أم خولة بالأمر..؟

- أعتقد أني تأخرت اليوم.. نذهب إليها غداً إن شاء الله.. إن شاء الله.

دخلت لعند جارتها في الطابق نفسه من البناء فتحت أمي معها موضوع دروس التقوية فرحبت بي كمعلّمة لابنتها، لكنني اعتذرت هذا الأسبوع لانشغالي وأعلمتهما أنني سأبدأ معها في الأسبوع التالي إن شاء الله، أما المبلغ فكان كما طلبت أمي وقد أعطتني أم خولة معظمه مقدّماً وهي تقول..أم لؤي غالية علينا.. وطلباتها أوامر..

..لأول مرة أشعر من أعماقي أن المال مهم جداً للحياة، بل إنه أحد دعائمها الأساسية، ولكن هل يصل تعلّق الإنسان به إلى حد يلغي معه كل القيم الإنسانية النبيلة..؟ بل وربما تُهدر أرواح البشر في سبيله..؟ المال خادم وليس سيداً.. المال وسيلة وليس غاية.. مهما قدم من خدمات يظلّ وسيلة، وما انهيار العالم الإنساني إلا لأنه ينظر إلى المال من منظور الغاية.. المال شيء ضعيف واهن أمام القيمة التي تبرق بوهجها فالجوهرة الثمينة..هي

Scanned by CamScanner

ثمينة بمكنوناتها... والمال ثمين باستعمالاته لا بجوهره..القيمة تذلل المال وتصهره في بوتقة خير الإنسان ، لكن المال وإن ذلل القيمة فهو لا يستطيع أن يخفي وجودها أو يغني وهجها، مهما كانت حاجتنا إلى المال فنحن أحوج ما نكون إلى القيم التي تصعدّ دوره وتكبت تسلّطه.

كان بيتها جذاباً ومعرضاً للأعمال الفنية، ورود السيراميك تتلألأ في كل زاوية، واللوحات المزركشة على الجدران. قالت لي أم خولة: إنه صنع يد ابنتي.. سألتها.خولة..؟ قالت: لا.. أختها الكبرى صفاء وهي إلى جانب ذلك ممرضة في إحدى المشافي .

فقلت بإعجاب: إنها فنانة حقيقية.. لقد شوّقتني لرؤيتها.

تنهّدت بحسرة وقالت.. نفسيتها متعبة كثيراً، تهرب من المنزل وكأنها تهرب من واقعها.

قالت أمي.. نسأل الله أن يصبّرها، لقد خُطبت ثلاث مرات ولم تكتمل فرحتها..!

وحين شاهدت الأم علائم جهلي راحت تحكي قصة ابنتها صفاء بقلب أم ينفطر ألماً على ابنتها.. لو ترينها.. إنها مثال النعومة والرقة، خُطبت لشاب موظف قَبِلنا بوضعه المادي الحرج لحسن خلقه، وقد كان الاتفاق أن تطول الخطبة عامين ريثما يهيّئ مستلزمات الزواج، لكنها طالبت بدل العامين أربعة أعوام دون أن

Scanned by CamScanner

يحرّك من أرضه ساكناً.. صبرتْ عليه كثيراً لكن قلبه كان أشد برودة من الجليد حتى أننا دهشنا ببرودة أعصابه وقلة اكتراثه.. انقبض قلبها وقررت تركه دونما أي تفكير بعودة.. أربع سنوات سرق فيها أحلى أيام شبابها ولم يهبها سوى الجمود والانتظار.. تنهدت قليلاً ثم تابعت.. خطبتْ بعدها لتاجروسيم سعدت به كثيراً لكن القدر سبقها بهول المفاجأة، فقد علمنا على سبيل الصدفة أنه مصاب بالصرع دون أن يُعلمنا وكادت ابنتي تقبل به رغم علّته لو لم يحذّرها زميلها الطبيب من مضاعفات عديدة لنوعية الدواء الذي يتجرّعه، حاولت الابتسام والحزن ثقيل في عينيها..ثم طلبها طبيب شاب زميلها في المشفى، ضغط على أهله كثيراً حتى وافقوا على خطبته لها، وبعد أن وُضع خاتم الخطبة في إصبعها بأربع وعشرين ساعة اتصلت أمه بي لتفسخ الخطبة بكل جرأة..أتعلمين لماذا..؟ لأنها في مثل عمره ولا تملك الجمال الذي تريده لعروس ابنها الطبيب، أتصدقين قصة ابنتي..؟ لقد جار الزمن عليها كثيراً..وهي الآن تهرب من الألم إلى العمل.

.. رحت أتفكّر.. صحيح أن من يرى مصائب الناس تهون عليه مصيبته، وبعد أن سمعت قصتها.. بل قصصها غدوت أشعر أنني في أحسن حال.. ومهما تعذّبت وتضايقت على مشاعري المهدورة مع علاء لكنها لا تقارن بمشاعرها التي هدرت مع ثلاثة.. ثلاثة حاولت أن ترسم مع كل منهم حياة زوجية راغدة

Scanned by CamScanner

تبدأ فيها صفحة جديدة بيضاء من الحياة وتتوسّم خيراً في أيامها القادمة، لكن كل أمنياتها ذهبت - كأمنياتي- أدراج الرياح- وتذكرت قول الشيخ عبد القادر.. من من منا لم تدعكه الحياة..؟.. من منا لم تدمِ يديه أشواكها..؟؟

اجتمعنا مساء ذلك اليوم أنا وغيث وعلا والسيد وائل في منزلنا وعيوننا ترمق غيثاً ليحدّثنا عن الخطة المرتقبة، فبدأ حديثه بكل ثقة وحيويّة..سيد وائل.. كيف حالك مع التمثيل..؟ ضحك وقال.. لي معه تجارب فاشلة على مسرح المدرسة، لكنه هوايتي الوحيدة التي لم تأخذ فرصتها حتى الآن..

- وإن قلت لك: إن الفرصة جاءت بنفسها لعندك هل تبذل جهدك..!

- بالطبع أفعل.. خصوصاً إن كان وراء تمثيلي تفريج كربة مؤمن.

- ممتاز.. ضمنا دور البطل..نريد الآن البطلة، وتمعّن فيّ وفي علا ثم هز رأسه وقال.

لا.. لا تصلحان لهذا الدور..!

وضعت علا يديها على خاصرتيها وهي تقول بغيظ.. وما الذي ينقصنا يا أستاذ غيث.. ؟ والله نحن أجمل من ممثلات التلفاز..!

Scanned by CamScanner

ضحك وقال..على العين والرأس كلاكما، لكنني ما قصدت هذا.. نريد فتاة تتصف بمواصفات معينة لا توجد فيكما. وإن حاولتما التصنّع فيها لن تفلحا، فالطبع يغلب التطبع.

سألته.. وماهذه المواصفات..؟

ارتبك حياءً وقال..الميوعة..الليونة.. تجيد مضغ العلكة.. وترنيم الضحكة.. ومداعبة الرجال بحنكة..!!

ضحك السيد وائل من أعماقه وهو يقول.. عليك بزوجتي.لقد أتلفت أسنانها من كثرة مضغ أنواع العلك التي تصدر إعلاناتها في التلفاز.. لكنها حامل.. هل تنفع لذلك..؟

فقال مبتسماً..لا.. لا تنفع.. نريد فتاة صغيرة..وحبذا لو كانت جميلة

لأول مرة أرى غيثاً يتحدث بأمور كهذه مغالباً حياءه، لقد أدهشني لكنه بثّ في الجو طرافة ودعابة أزالت شيئاً من غمامة الحزن التي احتلّت بيتنا.

قالت علا فجأة..أمل.. هل تذكرين صديقتنا روان في المرحلة الثانوية..؟ إنها تحمل كل هذه المواصفات التي ذكر.. لقد كانت رغم كل ذلك طيبة القلب مغيثة للملهوف..وكانت لا تفكر لما هو أبعد من أنفها، أعتقد أنها الآن طالبة في معهد المعلمين. ما رأيك يا غيث..؟

Scanned by CamScanner

.. هل تفي بالغرض..؟

- يجب أن أراها أولاً، وفي أقرب وقت، أخشى أن يصدر قرار المحكمة قبل أن نصل إلى قرص الحسابات..!

- غداً تكون عندك وتطلعها- إن ناسبت الخطة- على تفاصيلها وقبل ذلك مسوّغاتها.

ذهبت وعلا في اليوم التالي إلى معهد المعلمين وبحثنا طويلاً حتى وجدناها مع مجموعة فتيات وهي أكثرهن ثرثرة وألفتهنّ نظراً وأعلاهنّ صوتاً، حين رأتنا سعدت كثيراً وقالت بمرح.. أهلاً بالثنائي المدهش.. أي حظ ساقكما إليّ.. كيف تذكرتماني..؟.. لابد أن في الأمر سراً؟!

قالت علا.. أما زلت ذكية..؟

شهقت بضحكتها وهي تقول.. وهل الذكاء طلاء أظافر يذهب مع الزمن..؟!

قلت بلهفة.. نقصدك يا روان في خدمة العمر، وإن ساعدتنا فلن أنسى صنيعك ما حييت .

- أنا بالخدمة..!

ذهبنا بها إلي كلية غيث حيث وعدناه، راح يحملق فيها من رأسها إلى قدميها وهي تهتزّ يميناً وشمالاً ولا تعرف الثبات أبداً.. لا أدري لِمَ شعرت حينها بنار الغيرة تستعر في قلبي.. ما كل هذه

Scanned by CamScanner

النظرات.. ؟ وكأن علا لاحظت غيرتي فاصطنعت السعال وهي تشير به إليّ ، ابتسم وأخذني على طرف..إنها مقتضيات العمل- عفواً..أقصد.. مقتضيات الخطة..!

قلت بحياء.. لم يتبقّ إلا أن تضع على عينيك نظارتك لتشاهد بدقة أكبر ، وتمسك ورقة بيد وقلماً بالأخرى لتصبح كمخرجي التلفاز ممن يختارون فتيات الإعلان..!

- إن ضايقك الأمر ألغي الخطة من أساسها.

قلت باسمة.. لا..لا.. أرجوك.. لقد وعدت أبي ألا يطول سجنه.. ليس أمامي خيار آخر..! ووافق غيث على جعل روان بطلة الخطة وجمعها بنا في المنزل، وراح يشرح الخطة بكل تفاصيلها ودقائقها.

Scanned by CamScanner

دخل السيد وائل وروان علينا وهما يملآن الجو ضحكاً وصخباً، قال غيث.. المكتوب ظهر من عنوانه.. طمئناني.. حدّثاني ما جرى معكما بالتفصيل المملّ.

قال السيد وائل.. انتظرنا حتى خرج هاني الأحمد من الشركة، تعمّدت الاصطدام به وأنا أتظاهر بأني ملتفت إلى روان أكلّمها وكانت قد تأبّطت ذراعي كما أمرت، زمجر فيّ غاضباً فحاولت الاعتذار منه ثم رحت أحملق في وجهه وأقول له..لابد أن أعرفك، فقال بكِبَر..لكنني لا أعرفك، قلت بثقة.. بل تعرفني ألست هاني الأحمد الفتى المترف المدلل في المدرسة..؟! بدأ الفضول يشدّه فسألني..ذكّرني باسمك.. فقلت له..وائل عابد.. أعرّفك..صديقتي روعة طالبة في كلية الهندسة، التفتَ إلى روان التي كان تنظر إليه بكل تملّق وإعجاب والعلكة كما أمرت يا سيدي تطحن في فمها طحناً، قلت لها وأنا أغذّي غروره.. هاني الأحمد.. ابن صاحب أكبر شركة في المحافظة.. شاب أعزب .. وسيم.. لطيف.. مرح.. يده مبسوطة.. عشرته طيبة إلى أبعد حد، فقالت روان بدهاء.. لا تصفه لي.سأعرفه بنفسي.. ألا تدعنا يا سيد هاني على الغداء..؛ بدأت عيناه تلمعان فيها وهو يقول طبعاً طبعاً تفضّلا إلى السيارة.

Scanned by CamScanner

وأقسم لكم إنه لم يتذكرني حتى هذه اللحظة، ومع ذلك أصعدنا إلى سيارته وجلست روان بجانبه وكلّما تفوّه بكلمة رقمت ضحكة ثقبت بها أذني، وهكذا حتى أدخلنا إلى أفخم مطعم عرفته، أشكرك يا غيث على هذه الخطة، لقد تذوقت مأكولات لم تعرفها معدتي طيلة حياتها، وحتى الآن لم أحفظ أسماءها، رحت آكل بنهم أما هاني فسرعان ما وقع في شِباك روان وانشغل بها ونسيني بين الأطباق والصحون.

قالت روان: لقد همس في أذني أنه يريد أن يلقاني غداً وحدي في المطعم نفسه.

قال السيد وائل مازحاً.. وتتناولين الغداء وحدك..؟

صفّق غيث بحرارة وهو يقول.. ممتاز.. لقد ابتلع الطعم.. روان دورك رئيسي وأيّة زلة لسان منك ستودي بنا جميعاً، علينا أن نخفف الآن من اجتماعاتنا ما أمكن، قد يخطر بباله أن يراقبك من قبل أحد لفترة وجيزة فكوني على حذر..!

قالت روان بجدية.. بصراحة أخشى أن يطول الأمر ويحدث ما ليس في الحسبان، نحن نلعب بالنار..! قال غيث..اطمئني.. نحن لا نلعب.. نحن نخطط، لقد وضعت لكل شيء كل توقع، اذهبي غداً إلى المطعم ودعيه يأمن لك أكثر، أغويه كيلا يرى منك أخطاءك، أشعريه أنك تدركين نواياه وراضية بها، ثم نلتقي بعد غد في

Scanned by CamScanner

كليتي، سأكون قد استعرت سيارة لمتابعة الخطة، فحضّري نفسك لأهم خطوة وآخر خطوة فيها.

وفي الوقت المحدد صعدنا إلى سيارة غيث أنا وعلا وروان وكل منا يشجع روان ويشدّ أزرها، وصلنا إلى ما قبل باب الشركة بأمتار قليلة، كان وقت انصراف الموظفين، ولم يكن هاني قد خرج بعد، نزلت روان من السيارة وألسنتنا تلهج بالدعاء لها، قال غيث.. روان.. ربع ساعة وفقط، إن انقضت المدة ولم تنجزي المهمة انزلي حالاً ونتدبر الأمر حينها بشكل آخر.

وذهبت بكل جرأة وحماس ونحن في السيارة ننتظر وقلبي ينتفض هلعاً.. كنت عاجزة عن الثبات وأكاد أبكي من شدة الخوف..غيث..علا.. يا جماعة.. أخشى أن يصيبها مكروه بسببي.

قال غيث.. لا تخافي.. إن لم تنزل بعد ربع ساعة فسأصعد إليها حالاً وليكن ما يكون.

- أنا خجلة منكما.. أنا خجلة منكم جميعاً، لقد أربكتكم معي.. يبدو أن حماقتي جرّت عليّ ويلات كثيرة وأنتم الآن تنقذونني مما أطميت به نفسي، لقد غمرتموني بعونكم.. عاجزة عن الشكر حقاً.

نظر إليّ غيث بكل حنان.. كانت عيناه العسليتان تغزلان شعراً، قال ملمحاً.. بل مصرّحاً: هذا أقلّ ما نستطيع تقديمه لك.. لم أفكر يوماً أن ما أقوم به هو معروف أنتظر عليه شكراً.

Scanned by CamScanner

- بل إن في داخلي دافعاً قوياً يدفعني للإغاثة بكل رحابة صدر، ألست أسمى غيثاً..؟

ثم أردف بعمق.. جرحك هو جرحي يا أمل.. ثم.. هل تريدين أن يقول الناس غيث محام ولم يستطيع إظهار براءة عمّه..؟

قالت علا.. كفّا عن المجاملات الآن.. بقي خمس دقائق.. غيث.. أوقف السيارة قبالة باب الشركة.

وما إن فعل ذلك حتى رأينا روان تهرول بكل ما أوتيت من قوة وقد احمّر وجهها كقطعة شوندر، فتح لها غيث باب السيارة فدخلت وأقفلته وطارت بنا السيارة كلمح البصر إلى أبعد ما يكون عن الشركة وأعينها، سألناها نحن الثلاثة.. هل نجحت..؟

قالت وقد أرخت جسدها على الكرسي أشبه بالنائمة.. أجل..!

صفقنا أنا وعلا من الفرحة وطلبنا منها أن تحدّثنا عمّا جرى معها بالتفصيل من أول ما غادرتنا وحتى دخلت السيارة.

قالت.. صعدت إلى الشركة ورحت أسأل عن غرفة المدير، كان أكثر ما أخشاه في الأمر أن أرى والد هاني وليس هاني، سألت السكرتيرة. هل هاني موجود؟ قالت.. الأستاذ هاني.. نعم..! وحين هممت بالدخول اعترضت طريقي فقلت بميوعة.. [illegible] العمل إن ضايقتني بأيّ تصرّف.. أنا

Scanned by CamScanner

روعة.. ألم يعرّفك عليّ بعد..!! تركتني مستسلمة، فتحت الباب بهدوء وتسللت إلى الداخل دون أن يشعر بوجودي، كان يرتدي معطفه مستعداً للذهاب، وقفت وراء ظهره ودغدغته من خاصرتيه، التفت بسرعة ثم قال مبتسماً.. أهذا أنت..؟.. كيف دخلت إلى هنا.. ضحكت وأشرت إلى السقف وقلت.. نزلت من هنا.. هل أنت ذاهب..؟ وبدأت بإخلاعه معطفه فحاول الإمساك بي لكنني هربت من بين يديه وقلبي يخفق بشدّة، جلست حالاً على كرسيّ المدير وقلت بدلال.. اصرف سكرتيرتك.. وجودها يضايقني.. اصرف كل موظفي الشركة.. أريد أن ننعم بالهدوء، فقال حالاً.. على عيني..! وأمر السكرتيرة أن تغادر مع جميع ما تبقى من موظفين،بدأت ألهو بما هو أمامي على الطاولة ثم التفتُ إلى الحاسوب وقلت له بدلع.. شغّله لي. . فقال برقة.. وهل هذا وقته..؟ فقلت له.. طيّب أرني أقراص الحاسوب، التي عندكم هل تحوي أغنيات راقصة.. نختار منها واحدة..! ضحك وقال.. عندي في البيت نعم أما هنا فلا يوجد.

تظاهرت بالزعل وقلت له.. أنت تكذب عليّ.. لماذا لا تريد أن تريني الأقراص؟ ماذا تخفي عني؟ أخرج المفتاح وهو يضحك وفتح درج الخزانة فرأيت عدداً من الأقراص المتشابهة والتي من المستحيل تمييزها عن غيرها من المرة الأولى، قال لي.. ماذا تريدين منها..؟ ولا واحد قد ... بوجودك..! حاولت استجراره وقد

Scanned by CamScanner

بدأ الخوف يتسلل إلى قلبي.. طيب ما هذا القرص..! ولماذا هذا..؟.. وعمّ يتحدث هذا..؟ هكذا إلى أن أوصلني إلى قرص الحسابات.. ميّزته حالاً عن غيره وعرفت ترتيبه ثم تظاهرت بنوبة سعال شديدة وكنت قد ضمنت انصراف الجميع، ارتبك ولم يعرف ماذا يتصرف.. قلت له بصوت مخنوق ويدي على حنجرتي.. عجّل لي بكوب ماء.. فذهب على عجل ليحضر لي الماء وحينذاك فتحت محفظتي سريعاً وخبأت فيها القرص ثم وضعت محلّه القرص الغنائي الذي أعطاني غيث إياه، تابعت سعالي حتى جاءني بكوب الماء، تظاهرت بالتعب والإعياء الشديدين وقمت من مكاني أريد المغادرة، أمسك بي وهو يقول.. لم نجلس بعد..! قلت له: لا أدري ما الذي أصابني الآن.. اعذرني يا هاني.. كما جئتك اليوم لوحدي سآتي إليك غداً، قال.. هل أوصلك بسيارتي..؟ قلت له.. لا داعي لذلك.. ستقلّني سيارة أجرة. ابق أنت هنا قليلاً، ربما لم ينصرف بوّاب الشركة بعد ولا أريد أن يرانا معاً في هذا الوقت.. لا أريد أن أسبب لك المشاكل مع والدك.. إلى اللقاء..! وما إن غبت عن أنظاره حتى رحت أهرول وأكاد أقع أرضاً من مضيّ سرعتي..ياه.. لقد نجوت بأعجوبة.. إنها أعظم مغامرة أقوم بها في حياتي.. ولن أكررها ما حييت!

فقلت لها بكل سعادة.. ولكن.. لابد أنه أعظم عمل إنساني تقومين به في حياتك.. كم أنا ممتنة لك يا روان..!

Scanned by CamScanner

قال غيث وهو يقلّب ناظريه في القرص.. لحظة.. هناك شيء.

خفق قلبي بشدة وقلت.. أليس هو القرص المطلوب..؟

بقي صامتاً و لم يجبني.. ثم قال ببرودة أعصاب.. مكتوب عليه باللغة الإنكليزية.. جداول الحسابات ضربت علا كتفيه بيديها وهي تقول.. لقد جعلت فرائصنا ترتعد..!.. لقد أهلعتنا..!

ضحك وقال: بقي أن نضع القرص في الحاسوب لنتأكد منه.

دخلنا المنزل وكان محمد يعمل على الحاسوب فناولناه القرص سريعاً، وحين بدأت الأرقام تتسلسل على شاشة الحاسوب أمسكت يديّ بيدي علا ورحنا نقفز ونقول.. إنه هو.. لقد نجحنا، وانهمرت من عينيّ دمعة الفرح، رحت أنظر إلى غيث بكل إكبار.. غيث.. لن أنسى صنيعك ولو ضوعف عمري أضعافاً مضاعفة..!.. أنت.. أنت مثال النخوة والشهامة.. ليت كل الناس بطيبتك وقوتك، قلّما اجتمعت الطيبة والقوة في قلب إنسان..!

احمّر وجهه وراح يركّز وضع نظّارته تارة، ويحكّ رأسه تارة أخرى، وقد ألجم عن الكلام واكتفى بقول.. لم أفعل شيئاً.. على كل.. شكراً لإطرائك..!

- ليس إطراءً.. بل هو حقيقة فرضت نفسها على الجميع.

دخلت معه لعند المحامي ويد غيث تلوّح بقرص الحاسوب له، نظر المحامي بعجب.. كيف أحضرتماه..؟ وفي أقلّ من أسبوع..؟

Scanned by CamScanner

شرح له غيث كل ما فعلناه فراح ينظر إليه بإعجاب ويقول.. بعد تخرّجك لن تتدرّب وتعمل إلا عندي.

نظر إليّ وقال بابتسام.. واللهِ ما حسبت حساباً لهذا.. لأول مرة يخالفني الحظ..!

قلت له بصوت خافت..لأول مرة..!

فقال حالاً..لا..لا.. لعلّها المرة الثانية..!

قطّب المحامي حاجبيه وقال، ولكن.. أين ذهب دوري أنا..؟.. وكّلتماني أمر القضية وتركتماني كرجل كرسي..! لِمَ لم تخبراني من البداية..؟

قال غيث.. والله يا أستاذ جرت الأحداث بسرعة قصوى، كما أنني.. أحببت أن أتركها لك مفاجأة..!

قلت له بسرعة.. إذن حسبت حساب هذا..!

تلعثم قائلاً.. أستاذي وأحببت أن أظهر أمامه بمظهر الطالب المتفوّق، أعيب هذا..؟

قال المحامي.. على فكرة.. قد تتعرض الفتاة روان لبعض المساءلات القانونية، ولكنني سأتولّى أمرها بإذن الله وسأعمل كل جهدي أن أبعدها عن أي حرج، هذا أقل ما نستطيع تقديمه لها مقابل هذه الخدمة، بعد يومين موعد المحاكمة لتصدر قرارها

Scanned by CamScanner

النهائي، أخبراها ألا تخرج من منزلها في هذه الفترة، قد يكشف أمر سرقة القرص وهي المتهمة الوحيدة بسرقته، كذلك أنتما.. تجنبا الخروج إلى الشارع ما أمكن.. حياتكم جميعاً الآن معرّضة للخطر.. خوفاً من الفضيحة ورغبة في الانتقام..!

قلت له.. سنفعل ذلك ولكن المهم أن يبقى القرص إلى ذاك الوقت في حصن حصين.

- اطمئني.. لن يعرف مخلوق مكانه.

- وهل سيدخل محسن الأحمد به السجن..؟

- لا أظن ذلك.

- لماذا؟

- أولاً.. لأن صنفاً كهذا يكون له أيدٍ في كل مكان تحميه من الفضيحة، وثانياً.. لأن بإمكانه بكل بساطة إنكار الحادثة وتلفيق الاتهام إلى أحد أعوانه باتفاق معه على مبلغ مغرٍ من المال.

.. عندما خرجت وغيث من مكتب المحامي.. مررنا في طريقنا للعودة عبر إحدى الحدائق الغنّاء، كنا في أوائل شهر آذار.. كانت الأرض الميتة قد بدأت تتسرب إليها روح الحياة لتنبت من كل زوج بهيج، وكأنها إفحام لكل من يسأل.. أنّى يحيي هذه الله بعد موتها..! الشمس أيضاً انتعشت بالحياة وعادت إلى بكر

Scanned by CamScanner

صباها، إنها ترسل أشعتها الدافئة بكل حنان على العشب الأخضر الذي اشتاقها، والنسائم العليلة تحركه بكل رفق، بدأت أصغي إلى زقزقة العصافير بكل انتعاش وقد شمخت برأسي وضممت يديّ إلى صدري وأنا أستنشق النسمات الرقيقة بكل غدق، وخيوط الشمس تضفي على وجنتيّ حمرة زهريّة اللون.. قال غيث متردداً.. ما رأيك أن نجلس هنا قليلاً.. الجو جميل للغاية..؟!

كان صعباً عليّ إحراجه متذرّعة بتأخر الوقت.. عليّ أن أذهب لأعطي الدرس الأول لطالبة في الشهادة الإعدادية، نحن بحاجة الآن إلى دخل جديد.. مهما كان بسيطاً.. وتمتمت إليه بضحكة.. أتعاب المحامي لوحدها تكفي..!

- أمل.. أنت ممن يعملون بصمت.. ويعانون بصمت.. وربما.. يحبون بصمت..!

- وهل هذه ميزة حسنة أم سيئة..؟

- لا أدري.. كيف ترينها أنت..؟

- لا أدري أيضاً.. ما أدريه أن الصمت يفيد في أحيان كثيرة.. ويعذّب في أحيان كثيرة أيضاً..! عندما عدت إلى المنزل بعد انتهائي من إعطاء الدرس نمت طويلاً.. وغرقت في النوم.. شعرت بالراحة بعد عناء طويل.. شعرت كم هو جميل أن تظهر الحقيقة وتسطع كالشمس..!.. وكم مهر هذه الحقيقة غالٍ في هذا

Scanned by CamScanner

الزمن.. الزمن الذي مُلئ بالخداع والأكاذيب والغدر والخيانة، المرء فيها يعشق الحقيقة مهما كانت فظّة ويتشبث بها وإن كانت مرّة، لكننا قد نمرّ بأوقات يكون فيها وقع الحقيقة شديد الوطأة عليها.. يثقل الكاهل.. يصدم بالواقع.. يمزّق كل الأحلام.. ويشحب كل الأماني.. ويتمنى لو طالت ساعات سعادته أكثر.. حتى وإن كانت هذه السعادة مزيّفة.. لكنها تمنحه شعوراً قد لا يجده تحت أشعة الحقيقة الضاربة..!!

خرج والدي من أسره طليق الجسد والروح، يستنشق من جديد هواء الحريّة، يشمّ رائحة الحياة .. ذرفنا الدموع سخية من الفرحة، احتضنت والدي بشدة، بكيت على صدره حتى الثمالة، لم أبكِ الأيام التي فارقته فيها فحسب.. بل بكيت أعواماً بحالها كنت فيها بعيدة عنه لا أعي قيمة أو معنى لما يسمى أبوة إلا ما أسمع وأقرأ.. وأكتفي بمناداته .. أبي.. لكن هذه المحنة أوقظت ميتاً من رقاده، وأججت ناراً من ركام رماد، بات الشيب في رأسه يذكرني كل مرة أن أعبّ من عطفه قدر ما أستطيع ، بالأيام التي تذهب لا تعود والفرص التي تأتي لا تعوّض، وجدتي رحمها الله رغم مكوثي قربها حتى الالتصاق في الآونة الأخيرة لكنني أظلّ أقول.. ليتني لم أفارقها لحظة، من الصعب جداً أن يُجتثّ القلب من بين الضلوع.. أن تُقلع العين من محجرها .. وكذلك كان رحيل جدتي بالنسبة إليّ، فطيفها مازال يراودني إلى الآن، وإنني

Scanned by CamScanner

رغم كل ما مررت وأمرّ به من ظروف حضرت في مخيّلتي بتفاصيلها، إلا أنني لم أنس جدتي يوماً.. بل ولا أريد نسيانها.. أنتظر الرؤى التي تلوح لي فيها وأعيش يومي كله وكأنها حقاً زارتني.. تماماً كما وعدتني.. لن أنساك يا جدتي فأنت رفيقة طفولتي وأنيسة مراهقتي وتذكار أحلامي وجعبة أيامي.

اجتمع الأقارب ليلتها لتهنئة والدي لخروجه بالسلامة، زوجته تمسح دموع فرحتها كل تارة، وعمتاي تزغردان، والكلّ يضحك ويأكل ويثرثر، شاركت الجميع أفراحه وسعدت بهذا العيد الحقيقي الذي عوّض لي ببهجته عيد الفطر الذي مضى بكل أسى وريبة وقلق.. رغم فرحتي غير أن ذهني راح يلتفت إلى أمور كادت تغيب عن خاطرتي.. ماذا سيحدث بعد الآن سيعود علاء ويمتلئ غيظاً لفشله فهل يعود ويفرغ غيظه من وكر جديد..؟ ومحسن الأحمد وابنه هاني سيشتاطان غضباً للحيلة التي خُدع بها هاني.. ماذا يمكن أن يفعلا..؟ يا إلهي.. إلام ستظلّ تدور رحى هذه المعركة بين الخيرو الشرّ.. بين الفضيلة والرذيلة.. بين الصفاء والعكر.. هي منذ الأزل.. وإلى أن ينقضي الأزل.. شقاقهما أبديّ، لكن وعد الله حق أن العاقبة دوماً للمتقين وأن الله وليّ المؤمنين.. ليت كل الناس يتفهّمون هذا الوعد ويدركون حقيقته.. أحياناً أعجب من أمرهم.. قد يحلّ بأحدهم مصيبة تكاد تفقده صوابه وما إن يرى أحداً يمنّيه بمد يد العون له حتى تنتابه

Scanned by CamScanner

السكينة وتخور خلجات قلبه.. قد يهتم الفقير لقوت يومه من أين سيجنيه، وما إن يدعه أحد إلى إحدى الولائم حتى يرتاح من همّ يومه وعناء تفكيره.. فما بالنا وقد وكّلنا كل أمورنا وأقواتنا وأرزاقنا إلى الله تعالى.. ما بالنا وقد فوّضنا جميع حَاجاتنا إليه، ونحن على يقين تام ومطلق أنه جلّ وعلا على كل شيء قدير. فما علينا إلا الصبر، الصبر هو دواؤنا في هذه الحياة وهو طريقنا إلى رضوان الله تعالى.

Scanned by CamScanner

- ٢٠ -

.. جاءتني علا صباح يوم وهي في كرب من أمرها.. قالت لي.. لقد عاد حسّان قلت بلهفة.. حقاً..!.. خبر جميل، ثم قطعت لهفتي بخبرها الثاني.. لقد خطب.. وحفل زفافه بعد شهر.

- خطب..!

- من.؟.. ومتى..؟ هل هي أجنبية..؟

- لا - أخت صديقه.. طبيبة شابة وعلى مستوى رفيع من الدين والخُلُق والمركز الاجتماعي.. ثم برقت عيناها وقالت بهدوء.. وهل يبغي أكثر من ذلك..؟

صمتُ قليلاً..لِمَ لم تعلميني من قبل..؟

- كنت مشغولة بأزمة والدك.. مسحت دمعة عينها وحاولت الابتسام قائلة.. لست أول فتاة تتكسر أحلامها على طرقات الحياة، أحمد الله أنني لم أصارحه لكان موقفي صعباً أمامه.. لم تكن مصارحتي لتجلب الحب إلى قلبه عنوة، ثم إنني حاولت تناسيه طوال فترة غيابه، والآن أحاول أن أنساه البتة.. مجرّد قريب لي فحسب.. لم تعد تهمني حياته أو أخباره بشيء.

نظرت إليّ وقد عادت الدموع تترقرق في عينيها.. أتمنى له معها كل سعادة وهناء.. أحطتها بذراعي وقلت مواسية.. تعجبني

Scanned by CamScanner

قوتك.. ومكابدتك.. تحضرني الآن كلمات الشيخ عبد القادر، ورحت أقلّد صوته مداعبة.. لا تقفا عجزاً عند العراقيل.. استعينا بها للوصول إلى القمة.. أتعلمين.. إنه يعنّ على بالي كثيراً منذ يومين.. لا أدري لِمَ..؟!

قالت بأسى.. لأنه.. انتقل إلى جوار ربه.

فغرت فاهي.. أطرقت رأسي ولزمني الصمت خشوعاً وأنا أستذكر هامته العالية وكلماته الفذّة.

-.. رباه.. سبحان الذي لا يموت.. لقد طحنت الحياة ما تبقّى به من أشلاء.. كان ينتظر..! ربما لو عشت عمري أضعاف ماعاشه العم عبد القادر لن أعي من حكمة الحياة إلا النزر ويبقى الكثير مما نجهله، لطالما حدثت وتحدث لنا مواقف ومشاكل ونتساءل بحيرة.. لِمَ جرت.. وكيف..؟ وقد يمضي بنا العمر ويفنى ونحن نسأل أنفسنا هذا السؤال وتبقى الحكمة مكنونة عند رب العالمين.. علا.. أتذكرين الفتاة صفاء التي حدثتك عنها..؟

- أخت طالبتك خولة..؟

- أجل. لقد عادت وخطبت لخطيبها الأول وزفافها قريب.. أتصدقين..؟.. وكأن كل هذه السنوات وكل تلك المداخلات في حياتها لم تكن لتغيّر من قضاء الله وقدره في شيء..! أعيتني الحياة بتأمّلاتها وكأنني أغوص في قاع لا قرار له.. وأتخطّى طرقات لا

Scanned by CamScanner

نهاية لها.. ضفت ذرعاً بالآلام.. تهت في دوّامة الأماني.. وعجزت أن أكون كأترابي.. وأن أخفي ذاك النقص في أعماقي.. تلوح به عيناي.. وتداري بوحه شفتاي.

وجدت علاء ذات يوم جالساً على كرسي في حديقة الكلية بمفرده، أجّج فيّ رغماً عني مشاعر من المفروض أن تكون قد ماتت واندثرت بعد كل هذه الطواحين التي دارت عليها.. هكذا أوهمت علاء.. بل وأوهمت نفسي أيضاً.. ولكن.. يبدو أن المنهل الذي يهيّيء له صحره أن يكون شلالاً.. لا يكون إلا شلالاً، وإن قحطت الأيام عليه فهو غدير مياه ينساب بكل رقة وعذوبة.

كان الجو معتدلاً لطيفاً.. والسماء صافية إلى حد الطهارة.. وهديل البلابل وتغرير العصافير يعزف على أوتار القلوب ويشنّف الآذان بتراتيل حزينة.. الكلية في ساعات هدوئها القليلة.. والطلبة في القاعات إلا قلّة.. هُيئ لي ظرف ربما لم أوفّق إليه من قبل، اقتربت نحوه بكل وجل لكنني استحضرت رباطة جأشي وقوة نفسي، وحاولت الإعداد لكل الكلمات التي ستتحفني بالمراد، كان يجلس بكل راحته وقد وضع كعادته قدماً على أخرى وجلس متكئاً بشكل جانبي وهو يلعب بغصن بين يديه.. وقفت أمامه وقد احتضنت كتابيَ بين ضلوعي وضممته إلى صدري وكأنني أخفي بذاك نبضات قلبي المرتجف، رفع رأسه إليّ واستغرب.. ابتسمت وقلت.. كيف حالك علاء..؟

Scanned by CamScanner

أخفض رأسه من جديد وعاد ليلعـب بـالغصن كـأن لم يسـمع شيئاً، بسملت في أعماقي وتوكلت على الله تعـالى وبـدأت سـرد حديثي دون أن أنتظر منه أيّة إجابة..

.. أعلم أنك لا تريد الإجابة، بل لا بد أنك صرت تكره النظر في وجهي، يبدو أن العداء قد بات بيننا قوياً للغاية.. لم أبغه هكذا يوماً، ولكن للأسف. تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، أحدّثـك يا علاء وأنا.. لن أقول ناسية كي أوشّح كل حديثي بـالصدق.. بل متناسية لكل ما جرى بيننا من شـقاق، ولكـل مـا أضمرتـه لي من إساءة، والدليل على ذلك أنني أبادرك الصلـح وأنـا الفـائزة في آخر جولة، وأعلم أن الفوز نصيبي دوماً، ليس فخراً بنفسي أو ثقة بقوتي.. لا أبداً..بل على العكس..ربمـا كنـت مـن أضعـف خلـق الله، لكن لي وكيل وأنعم به من وكيـل.. يسـند ظهـري، ويشـدّ أزري، ويعينني في كل أموري، وأشعر برقابته لي وعلي في كل آن ولحظة.. إنه الله تعالى وليّ الضعفـاء والمظلومـين، ومـن كـان الله معه يا عـلاء.. فمـن عليـه..؟ عـلاء.. أتسـاءل الآن. أتـراكَ فيمـا نصبتَ لي من فخ.. وصلت إلى ما تبغي الوصول إليه؟ هل حققت النتيجـة التـي تريـد؟ هـل استطعت أن ترضـي غـرورك وتثبـت لنفسك ولجميع أترابك أنك قـادر علـى خـداع كـل الفتيـات..؟ خداعهن وليس كسب محبتهـن..! هـل هـذا أمـر يستحق الفخـر ويستحق إسداء [illegible] تهنئتـه..؟ عـلاء.. لقـد خدعتنـي

Scanned by CamScanner

بمشاعري.. أهدرتها عبثاً.. وكم من الصعب أن تهدر المشاعر عبثاً..! لعلّك لم تجرّب هذا، لأنك رغم كل علاقاتك لم تعرف الحب يوماً.. ليس الحب الذي يهيّج الغرائز ويفتعل الأحداث والمواقف ، ليس الحب الذي نراه الآن على الشاشات ويسعى الجميع لتتبع أثره، بل هو الحب النابع من الأعماق.. من سويداء القلب.. الحب الذي يعلّم الوفاء، يعلّم الإخلاص.. يعلّم الإيثار ويلغي الأثرة.. يعلّم الشهامة ويلغي الغدر، الحب الذي لا يموت عند فناء الأجساد، بل يحيا بحياة الأرواح.. وما ماتت الأرواح يوماً..! سيأتي يوم يا علاء وتتعرف إليه.. مهما طال هذا اليوم وأبطأ.. فسوف يأتي.. وأخشى عليك أن تهدر فيه مشاعرك عبثاً كما أهدرت مشاعر الكثيرات، لأن الزمن عجلة تدور علينا كما دارت يوماً لنا.

..علاء.. ليتك تعلم أنني لست من حرّضت فتياتك عليك كما تظن، ولِمَ أنا بالذات والضحايا قبلي كثيرات..؟..مع ذلك..أشكر من كل قلبي تلك التي قامت بذلك، لأنها خلّصت هؤلاء الفتيات من عذاب عشته وعانيته، لكنك رغم الجرح الكبير الذي جرحتني رحت تزيد من ألمي بسياط غدرك وحقدك وأنا التي لم أضمر لك يوماً إلا كل خير.. أو تقابل الإحسان بالإساءة يا علاء..؟ أترضى ذلك على نفسك وأنت الذي اعترفت لي بنفسك أنني طيبة القلب..؟ أتريد أن تطعنني بأحد أعضائي.. تريد

Scanned by CamScanner

أن تغدر بأختي.. أهذا لأنني أمنّتك ووثّقتك وحكيت لك بكل سذاجة.. لم أفكر يوماً أن تتخذ من كلامي ما يحلو لك وما يعينك في إرضاء شهواتك.. أختي.. أختي الصغيرة يا علاء..؟؟

اغرورقت عيناي بالدموع رغماً، وكأن كلماتي بدأت تفعل مفعولها فيه لكنه أمسك لسانه أن يتفوه بكلمة وراح يتململ في مجلسه رغم ذلك كان يصغي لكلماتي متظاهراً بالغباء..تابعت كلامي.. صحيح أنني صفعتك يومها كفاً لكنك صفعتني قبلها مئة كف.. أن أراك مع أختي وعلى الطاولة التي جلسنا عليها نفسها معاً واستشعرت وحدها كل أحاسيسي ومشاعري في ذلك الوقت..؟.. وعدت لتوقع أبي في محنة ما مرّت به يوماً، أصبت سهمك في أغلى ما يملك.. الأمانة.. طعنته بأمانته، ألقيت به في غياهب السجن بعد هذا العمر، جلعتني أرى على خديه دموعاً لم أرها طيلة عمري، لكن الله تعالى أظهر الحق وأزهق الباطل ، وحين وعدتك بإخراجه من السجن لم أكن أعدك بما أوتيته من علم، بل بوعد من الله.

..علاء..أنا لا أكلمك هذا الكلام لأنك كافر..معاذ الله أن أكفّرك.. بل لأعلمك دائماً مثابة المتقين، ولا تعجب إن قلت لك: إنني كلما ذكرتك أدعو لك أن تكون منهم، ربما غيري وربما ذاقت من لؤمك ما فتئت تدعو عليك ليل نهار.. وأعلم.. أعلم أنني إن دعوت عليك فسأجاب لكنني اعتبر نفسي مظلومة ويرفع

Scanned by CamScanner

عني الظلم حين أراك قد عدت إلى رشدك، وعيت سوء كل ما تفعل.. علاء.. أريد أن تكون من التائبين الذين يبدّل الله سيئاتهم حسنات، حريّ بي أن أدعو لك بكل خير وإن لم أفعل ذلك فهذا يكذّب كل مشاعري التي أحسستها نحوك يوماً، والله وحده أعلم بصدق ما أحسست.

ربما أطلت عليك حديثاً لم تعلم حتى الساعة كنهه، وتودّ الخلاص من صداه في سمعك.. أعذرك لكنني على يقين أن دعائي سيجاب يوماً وستعود حينها إلى هنا.. إلى حيث تجلس وأقف.. وستذكر كل ما قلت.. وستشعر حينها بصدق ما أحسست وعمق ما ذرفت.. ولات حين مندمِ.. أستودعك الله..!

أدرت ظهري له ومشيت لا أعلم عن ردة فعله شيئاً، غير أن دموعي بدأت تسيل على وجنتي بكل حرارة وصمت.. لا أدري كيف تبادرت إلى ذهني كل هذه الكلمات، وأيّ نبع دفّق كل تلك المشاعر.. أيعقل أنني مازلت أحبه..؟.. كيف أحبه وأمقت تصرفاته..؟ كيف أحبه وأكره طباعه..؟ ما الذي أحبه فيه إذن..؟.. أهو الشكل..؟..لا وربي..! أحببت فيه الصورة التي رسم والتي صدقت.. وكلّما رأيته أو شاهدت عواقب لؤمه أجاهد بكثرة لأجمع الشخصيتين في شخص واحد وكل ظني أنهما ليستا لشخص واحد..!

Scanned by CamScanner

..رغم هذه العواطف التي تنفّست لتعذبني فقد شعرت براحة عظيمة في أعماقي، لقد أفضيت أحاسيس وأفكاراً كانت تثور فيّ ليل نهار، قمت بمواجهة علّها تنهي هذا الثأر المتجدد، وتعقد هدنة بين الخير والشر يتوسّم فيها الخير صلاحاً للشر، وينتظر فيها الشر من الخير كبوة لينقضّ عليه.. أما أبي فقد بدأ يضجر من مكوثه في المنزل دون عمل، يثور في وجه زوجته حيناً.. وفي وجه أولاده حيناً آخر.. ولأتفه الأسباب.. أما أنا فلم يعد يرى وجهي إلا ما ندر.. بات سعيي لهثاً في الأونة الأخيرة.. دوام في الكلية- دروس تعليمية لخولة.. ودراسة مكثّفة في المنزل.. حتى أن لقاءاتي بعلا قلّت وتضاءلت سوى وقت المحاضرات، كنت خائفة أن تبدأ امتحاناتي ووضع منزلنا لا نحسد عليه، ولكن لطف الله كان واسعاً بنا فقد اتصل أحد أصدقاء والدي به يعلمه أن ينزل بديلاً عنه في عمله كمحاسب لإحدى الشركات الضخمة أيضاً، حيث عُرض عليه عقد عمل في الخليج لمدة أربع سنوات وبراتب مغر وإن لاءمه الوضع سيجدد العقد، لقد توخّى صديقه في بحثه عن الإخلاص والخبرة وقال: إنه وجد خيرهما في والدي، كان هذا بعد مجهود كبير قام به والدي في البحث عن عمل في كل شركة وسؤال كل موظف وترك خبر لدى كل صديق، وحمداً لله أن لم يضع جهده سدًى.

تحسّنت ظروفي بعد ذلك وكثّفت جهودي استعداداً لامتحانات الفصل الثاني من سنتي الدراسية الأولى، فقد أنهيت

Scanned by CamScanner

الدورة التعليمية لخولة وأنا أرى حصيلة جهدي في استيعابها وتركيزها ووعدتني أمها أن أتابع معها تلك الدروس في السنوات القادمة أيضاً، أما والدي فقد انشغل بعمله الجديد وكلّه همة ونشاط وكأنه يريد أن يشجب أمام الجميع صك اتهامه وبكل ثقة.. يعجبني فيه طموحه ونشاطه اللذان لا ينضبان، فهو يعلم أن كفاحه مازال مستمراً لإعالة إخوتي وأمهم.. وإعالتي أنا أيضاً.. إلا أن نوافذ قلبي بدأت تشرّع وتفتح للحياة وترى فيها أبواباً للسعادة وبساطاً مخملياً لأحلام وردية.. أن أنهي تعليمي الجامعي وأوظّف كمدرّسة وأرى بجانبي ذاك الشخص الذي يحمل كل المقوّمات التي تتمناها كل فتاة في فتى أحلامها.. إنه غيث.. بدأت أميل إليه بهدوء وصمت خصوصاً بعد وقوفه إلى جانبي في محنتي الأخيرة، لقد عبّر لي وقتذاك عن حبه العارم بالفعل لا بالقول، وأثبت لي بجدارة أنه خير من أُسلم له زمام حياتي، غير أننا في فترة الامتحانات انشغلنا، ولم يعد يرى بعضنا بعضاً إلا نادراً .

قدمت موادي بشكل جيد وبأعصاب مرتاحة ونفسية مستقرة نوعاً ما، وفي اليوم الأخير من الامتحانات خرجت من القاعة أنا وعلا لنجد غيثاً ينتظرنا وبيديه عبوتين من العصير البارد، قالت له علا، طبعاً يا أستاذ، أصحبت محامياً وتركت همّ الداسة وتعبها لنا..!

ضحك وقال.. نحن السابقون وأنتم اللاحقون.

Scanned by CamScanner

- بقي عليك خدمة العلم.. ثم الولوج إلى القفص الذهبي مع تعيسة الحظ، وراحت تنظر إليّ وأنا أصغي بكل صمت لكل ما يدور أمامي من حديث أنا المقصودة به أولاً وأخيراً، تابعا حديثهما وهما ينظران إليّ وكأنني غبية لا أعي ما يعنيان..

- من قال: إنها تعيسة..؟ وا للهِ إنها محظوظة.. وسوف أعلمها بذلك قريباً..!

- قريباً..؟.. بعد عامين وقريباً..!

- ومن قال لك: إنني سأنتظر لعامين..؟ أخطبها الآن وبعدها يحلّها ربك..!

احمرّت وجنتيّ لكل ما سمعت واعتذرت حالاً ونفذت من بينهما وقلبي يخفق كعصفور بدأ يصفّق بجناحيه ويحلّق في فضاء الأحلام، وكأنّ الإنسان في لحظة فرح ينسى كل معاناته، ينسى كل العبرات التي سكبها والآهات التي ألهبها، ويعيش هذه اللحظة ويرددها بين حناياه بكل شوق للفرح وحب للسعادة.

توالى صدور نتائج المواد تباعاً، وأنا وعلا نتردد على الكلية لنطمئنّ على علاماتنا ، وكنت أسترق النظر خلسة إلى اسم علاء وعلاماته لا تبشّر بأدنى نجاح.. ونمرّ بعدها على كلية غيث ونطمئنه على علاماتنا فهو يتدرّب عند أستاذه المحامي كما سبق واتفقنا

Scanned by CamScanner

وعندما صدرت النتائج كنت وعلا من الطلبة الناجحين و لله الحمد غير أنني حملت إحدى المواد إلى العام التالي لوطأة الظروف التي أثقلت كاهلي، أما علاء.. فكان حتماً من الراسبين، وحين لمحتني علا أبحث عن اسمه قالت بانبساط..

- سيستنفد سنوات الرسوب قريباً وترتاح بنات الكلية منه حين يفصل عن الجامعة.

- سيفصل عن الجامعة.. لكنه لن يُفصل عن المجتمع، إنه رغم أدرانه متغلغل في أحشائه لا ينفكّ عنه..!.. على فكرة.. مالي لا أرى غيثاً في يوم كهذا..؟ أم أنه غاب كيلا يقدم لنا هدية النجاح..؟

صمت بأسى وتلاشت رويداً، رويداً ابتسامتها.. ما بك يا علا.. هل أصاب غيثاً مكروه..؟ لقد أفزعتني عليه.

-لا..لا.. غيث بخير، لكنه منذ أسبوع إلى الآن لا يعرف الفرح أو الابتسامة.

- لماذا؟

- لأجلك.. لقد فاتح أمي بموضوع خطبتكما فعارضت بشدة.

قلت كمن تلقى ضربة على رأسه.. عارضت..؟.. وبشدّة..؟..لماذا..؟

- تقول: إنه مازال عليه إنهاء الخدمة العسكرية وتهيئة نفسه. ومازال مشواره طويلاً..!

Scanned by CamScanner

- لكن غيثاً قال إنه سيعمد حالياً إلى الخطبة فقط.. ماذا قال لها غيث..؟.. ماذا تصرّف..؟

- لقد تضايق كثيراً، وكلما فاتحها بالموضوع ثارت عليه، عرضت عليه عدة فتيات وهو يرفض بإصرار.

- عرضت عليه فتيات..؟.. إذن فاعتراضها ليس على فكرة الزواج الآن كما تدّعين..!

قالت بارتباك كمن أمسك من لسانه.. لا أدري.. تقول: إنها تريد فتاة فاتنة على مستوى عال من الجاه والجمال.. إنها فخورة بابنها المحامي وتقول له: أريد أن تكون عروسك حديث الكل.

- وأنا لست فتاة الأحلام الحورية التي تريد أمك تحقيقها على أرض الواقع، لا أملك كل هذا الجمال.. أو ذاك الجاه.. لا أليق بابنها المحامي.. أمعقول أن ترفضني أمك يا غلا... وهي التي تعرفني طيلة سنوات مضت و لم تسمع عني إلا كل خير..؟ كنت أظن أنها تحبني مثلك تماماً..!

- هي فعلاً تحبك وتريد لك كل خير.. لكنها.. لا تستطيع أن تنسى أنك..

وصمتت مجدداً فانهمرت دمعتان من عيني وقلت.. إنني ابنة مطلّقة.. أليس كذلك..؟ قوليها ولا تخشي شيئاً..!

أطرقت رأسها وكأنها تعتصر ألمي في قلبها..

Scanned by CamScanner

.. قوليها.. أنا ابنة المطلّقة.. تزوّجت المطلّقة وكوّنت نعم الأسرة، وتزوّج المطلّق وكون نعم الأسرة، وعاش كل منهما حياته الطيبة وما زالت ابنتهما هي ابنة المطلّقة.. لم يستطع الزمن أن يمحو هذا اللقب.. وكأنني أنا من زوّجتهما.. وأنا من طلّقتهما..!

- أمل.. أمي لا تقصد أن..

- بل تقصد.. والمجتمع كلّه يقصد.. يقصد أن يحاكم المرأة دوماً دونما ذنب اقترفته، ما ذنب أمي إن لم يكن هناك تفاهم بينها وبين أبي..؟ ما ذنب أمي إن استحالت الحياة بينهما..؟ ما ذنب أمي إن لجأت وأبي إلى التسريح بالمعروف ما لم يتسنَّ الإمساك به..؟ وما ذنبي أنا أن أحمل وزر أهلي..؟.. ألا يكفي أني عشت عمري فاقدة حضنهما ودفء فراشهما..؟.. وهل طلاق أمي بات عاراً أحمل خزيه إلى مماتي..؟

- أمل.. والله لا أعرف ماذا أقول لكِ.. لقد حاولت مع أمي عبثاً..

- أصدقك.. لكنك لا تستطيعين تغيير نظرة مجتمع بأسره، مجتمع ينظر إلى الأمور نظرة سطحية يدقق في سفسافها ويترك معاليها، أنا لم أتضايق من أمك أنها رفضتني كوني ابنة مطلّقة [illegible] وخُلقي، ولطالما مدحت فيهما

Scanned by CamScanner

الشيء الكثير، أهو كلام في الهواء..؟ أم أن الأمور حين تدخل في النسب والمصاهرة يصبح حالها غير حال..؟.. من قال: إن الطلاق ينقل بالوراثة..؟.. عجبي..!

- أمل..

- أجل.. قولي أمل.. وكرريها دون كلل.. فمهما ضاقت الدنيا برحبها عليّ.. أبواب رحمة الله واسعة وكثيرة، مهما أيأستني الحياة بصدّها.. مازال في قلبي أمل أن تُقبل عليّ يوماً.. مازلت أرى فيها شمساً تشرق وسماءً تصفو وبلابل تغرّد.. مازلت أرى فيها الجمال.. وأسبّح بحمد مبدع هذا الجمال.. وأناجي جامع الناس ليوم لا ريب فيه..مهما رأيت من قسوة البشر.. فرحمة ربكِ خير مما يجمعون.

تمت بحمد الله تعالى

١٠/ محرّم/ ١٤٢١ هـ

١٥/ نيسان/ ٢٠٠٠ م

Scanned by CamScanner